ديراو داتسيدا
رواية
سأهجركِ
كما هجركَ أبي
UNA COSA QUE EMPIEZA POR LA "M"
النسخة الالكترونية

سأهجرك كما هجرك أبي

سأهجركِ كما هجرك أبي / ديراو داتسيدا /رواية

ردمك: 978-9931-704-20-1

الإيداع القانوني: السداسي الأول 2019

النسخة الالكترونية: 22 جانفي 2020

# سأهجرك كما هجرك أبي

رواية

ديراو داتسيرا

النسخة الالكترونية
PDF

# الإهـــــــداء

إلى نفسي المكتئبة... ابتهجي أرجوك!

# الفصل الأول:

## دير سانتا ماريا دي مونتسيرات

دق جـرس الكنيسـة بصـوت خافـت في مدينـة برشـلونة الإسـبانية، دقـات توحـي لمـن يسـمعها أن الديـن قـد صـار حكـرا عـلى فئـة قليلـة مـن النـاس تلجـأ إلى الكنائـس أيـام الآحـاد طلبـا لغفـران الـرب. دخـل الجميـع إلى القاعـة واصطفـوا فـوق الكـراسي الخشـبية لسـماع الوعـظ، كانـت الموعظـة حـول الحلـم والتسـامح، قـال الراهـب بصـوت عـال: «إن ضربـك أحدهـم عـلى خـدك الأيمـن فـأدر لـه خـدك الأيـسر!»، التفتـت «مايـا» نحـو ابنتهـا وهمسـت في أذنهـا: «إيـاك أن تفعـلي ذلـك يـا ابنتـي، لأنهـم لـن يتوقفـوا عندهـا عـن إيذائـك مجـددا ومجـددا! هـؤلاء مسـيحيون ونحـن لسـنا مثلهـم!»

مايـا امـرأة في العقـد الرابـع مـن عمرهـا، عيناهـا تقـولان الكثـير عنهـا، يمكنـك أن تعـرف عـن طريـق النظـر إليهـما أن هـذه المـرأة قـد عانـت الأمرّيـن في حياتهـا، الهـالات السـود، التجاعيـد المبكـرة، الشـفاه اليابسـة، كلهـا تقـول أن حيـاة هـذه المـرأة لم تكـن سـهلة مطلقـا.

خرجـت مايـا مـن الكنيسـة وهـي تجـر ابنتهـا مـن يدهـا مسرعـة: «الأخـت مـيري لم تحـضر اليـوم، هيـا أسرعـي يـا قـدس سـنجدها بانتظارنـا حتـما هنـاك!»

ـ «أريد أن أذهب إلى كنيسة ساغرادا فاميليا يا أمي خذيني إليها أرجوك!»

ـ «لقد أخبرتك مرارا أننا سنذهب إلى دير سانتا ماريا ألا تفهمين!»

ـ «لكنك قلت أنه في أعالي الجبل، لا أريد أن أبتعد عن المدينة».

ـ « إنه على مسافة 48 كلم فقط، هيا اركبي في السيارة واسكتي!»

ركبت مايا و «قدس» سيارة أجرة وانطلقتا مباشرة إلى «سانتا ماريا دي مونتسيرات»، كانت مايا تبكي بحرقة وابنتها تسألها عن السبب والأولى لا تجيب، سألها سائق الأجرة مرارا إن كانت تريد بعض المناديل الورقية لكنها ترد بالنفي.

توقفت السيارة أمام باب الدير، قفزت الأم بسرعة من السيارة تاركة ورقة نقدية للسائق: «احتفظ بالفكة»، قالتها وهي تجر ابنتها بسرعة نحو الدير، دقت الباب مرة واحدة ففتحت لها إحدى الراهبات لتبادر الأم بالكلام:

ـ « أنا مايا وقد وجدت.....».

ـ « تفضلي! الأخت ميري بانتظارك، تفضلي يا صغيرتي! أنت جميلة جدا!»

دخلت الأم وابنتها، واتجهتا برفقة الراهبة إلى مكتب رئيسة الدير «ادخلا هنا من فضلكما» قالت الراهبة، أجابتها مايا: «الفضل لك أختاه».

كانت ميري امرأة عجوزا ذات عينين زرقاوين، ترى الصفاء والجمال لا زال باديا على محياها، ابتسمت قائلة:

ـ «ها قد أتت ابنتاي! لقد أمضيت الأسبوع كله في ا نتظا ر كما » .

ـ «شكرا لك أختاه، لقد واجهت مشاكل عديدة لذلك لم أتمكن من أن آتي في الوقت المناسب، أنا آسفة».

ـ «لا بأس ها هي الأوراق، الأولى خاصة بمعلوماتك الشخصية والتي تليها، معلومات عن ابنتك، والإمضاء يكون خلف الورقة».

ملأت مايا استمارة المعلومات بسرعة، واعتذرت من الأخت لأنه عليها أن تذهب في الحين، التفتت إلى قدس، جلست القرفصاء ونظرت مباشرة في عينيها:

ـ « ابنتي العزيزة، أمك قد فشلت في حياتها، وأنا لا أستطيع بعد الآن أن أعتني بك، لا أريد لابنتي الوحيدة أن تضيع كما ضاعت أمها، هؤلاء النسوة لطيفات جدا، سيعتنين بك جيدا...».

ـ « لا تتركيني هنا يا أمي أرجوك! أريد أن أذهب معك! لقد

قلت لي أننا سنزور صديقتك هنا ثم نرجع مجددا إلى الجزائر!»

ـ «آسفة يا ابنتي، سأعود وحدي، ثقي بي يا قدس، سأعود يوما ما لاسترجاعك، حين أقف على رجلي مجددا، أنا امرأة محطمة يا ابنتي، أريدك أن تعيشي معهن، سيعتنين بك جيدا، أوصيك بشيء واحد فقط، نحن مسلمون يا ابنتي لا تعتنقي دينهن! ولا تتأثري بهن، أريدك فتاة مسلمة هل فهمت؟!»

ـ « كلا لا أرييييد.....».

وسط بكاء الأم وابنتها، خرجت مايا مسرعة وأغلقت الباب خلفها، أرادت قدس أن تلحق بها لكن ميري أمسكتها واحتضنتها بقوة: «لا تخافي يا ابنتي سأعتني بك جيدا!»

نادت بعدها إحدى الراهبات وطلبت منها أن تأخذ قدس في جولة حول الدير، أمسكت الصغيرة دميتها بيد وباليد الأخرى يد الراهبة، وأخذت تتأمل أروقته وغرفه، وقاعات الدراسة والطعام بتلك الزخارف الكاثوليكية والصور المعلقة في كل مكان للصليب ومريم العذراء والقديسين وغيرها من الصور الغريبة التي لم تعتد رؤيتها، انتهت جولتهما في الساحة أين وجدت العديد من الفتيات في سنها يلعبن هناك، قالت الراهبة:

ـ «هذا هو الدير يا عزيزتي، القوانين هنا صارمة نوعا ما وهدفها أن تجعلك امرأة قوية في المستقبل، أيتها الفتيات، هذه قدس أختكم الجديدة أريدكم أن تحيوها»

صرخت الفتيات بصوت واحد:

«Hola !buenos Dias!»

كانت قدس مرتبكة قليلا، لكن تلك الوجوه الجميلة والإبتسامات البريئة جعلتها تحس بنوع من الإرتياح، كانت تعلم في قرارة نفسها أنها بين مجتمع يتكلم بلغة أخرى ولديه معتقدات مختلفة، غير تلك التي اعتادت عليها في بلادها، ورغم ذلك فقد أحست بالإنتماء، لأنه حتى ولو اختلفت أديانا وثقافاتنا ومعتقداتنا، فستجمعنا الطفولة، الطفولة التي لا تعترف سوى بالإنسانية، الطفولة التي لا يهمها جنس الآخر ولونه ودينه وعرقه، الطفولة التي تعيش في السعادة، وتنشرها حولها.

كانت الأشهر الأولى في الدير صعبة جدا على الفتاة، فقد كان من الصعب عليها وهي الفتاة العربية أن تتأقلم في مجتمع أوروبي، وما زاد الأمر صعوبة هو النظام الداخلي للدير، حيث كان عليها أن تنهض باكرا كل صباح وتشرب الحليب رفقة الفتيات في وقت محدد ثم تنتقل إلى قاعة الدراسة لتدرس مع زميلاتها، تتناول الغداء في وقته المحدد ثم تدرس مساء، وحين الانتهاء من الحصص المبرمجة تتلقى دروسا خصوصية في اللغة الإسبانية كونها لا تجيدها، ثم تتناول العشاء باكرا في وقت محدد أيضا ثم تقرأ كتابا يطلب منها تلخيص محتواه كل أسبوعين وتخلد إلى النوم باكرا أين تقوم المشرفات بإطفاء الأنوار على الساعة التاسعة ليلا.

بعد ستة أشهر، وجدت قدس نفسها أخيرا مرتاحة، فقد أصبحت الآن تمتلك صديقات تشترك معهن في كل شيء، الشيء

الوحيد الذي كان ناقصا في حياتها هو «الدين».

لقد كانت قدس تستثنى دائما من الحصص الدينية، ولا يسمح لها بمس الإنجيل، ولا يطعمنها لحم الخنزير، لقد أخبرتها إحدى الراهبات أنها فتاة مسلمة، وأنهن سيعتنين بها حتى تصل إلى سن الثامنة عشر وحينها تكون لها الحرية المطلقة في اختيار الدين الذي تريد.

ـ «لكنني أريد أن أقرأ الإنجيل وأحفظه كما تفعل زميلاتي».

ـ « ستفعلين ذلك حين تبلغين سن الرشد، أما الآن فأنت فتاة مسلمة وعليك البحث في دينك، وحين يأتي الوقت سيكون لك حرية الاختيار».

الأخوات في الدير متخلقات جدا، فهن لم يردن استغلال الفتاة وضم إنسان جديد إلى دينهن، كان هدفهن تربيتها وتعليمها وتثقيفها وإعطائها مكارم الأخلاق التي تجمع كافة الأديان، وحين تبلغ السن القانونية تختار بنفسها إن كانت تريد أن تبقى مسلمة أم تدخل المسيحية.

سنوات مرت في الدير وقدس تنتظر أمها، لقد بدأت مع نضوجها تفهم أشياء وتكتشف أمورا جديدة لم تكن في حسبانها، أن أمها رمتها في الدير ولن تعود لاسترجاعها أبدا!

بدأت كراهية البنت لأمها تزداد شيئا فشيئا، ووصلت إلى أشدها حين سألتها إحدى فتيات الدير: «هل صحيح أن أمك

رفضـت أن ترضعـك لأنهـا تقـززت منـك؟»

ـ «من قال لك هذا الكلام؟!»

ـ «سـمعت الفتيـات يتهامسـن حولـك، لقـد سـمعن الأخـت مـيري تقـول للمشرفـة أن أمـك قـد قالـت لهـا ذلـك لأنـك ولـدت بعـد سـبعة أشـهر مـن حملهـا بـك، وكنـت صغـيرة جـدا، فلـم تتمكـن مـن إرضاعـك، لقـد قالـت أنهـا تقـززت منـك».

ـ «لا تقولي كلاما كهذا أيتها الفاجرة!»

ـ « آه! أنت تقولين كلاما فاحشا! سأخبر المشرفة حالا!»

أمضـت قـدس يومهـا في غرفـة العقـاب كونهـا تلفظـت بـكلام فاحـش، كانـت تشـعر بالاسـتياء كثـيرا لأن صديقتهـا شـتمتها بطريقـة غـير مقصـودة ووصفتهـا بالمقـززة! وأخـذت تلـوم أمهـا التـي رمتهـا في ديـر وذهبـت... أمهـا التـي «اشـمأزّت منهـا!»

وصلـت الفتـاة إلى سـن المراهقـة لتجـد نفسـها منعزلـة عـن الجميـع، تفضـل السـكوت عـلى الـكلام، لاحظـت المشرفـات ذلـك منهـا فقمـن بإرسـال فتيـات إليهـا كي يخرجنهـا مـن تلـك القوقعـة التـي صنعتهـا لنفسـها، ومـن أولئـك الفتيـات «مونيـكا» صديقـة قـدس المقربـة.

كانـت قـدس في فراشـها، تقـرأ كتابـا كعادتهـا، فاقتربـت منهـا مونيـكا:

ـ «هيا ابتعدي قليلا، أريد مكانا بجانبك».

ـ «مونيكا! لا تزعجيني أرجوك!»

ـ «لدي موضوع جميل أريد أن أحدثك فيه».

ـ «ليس هنالك أي موضوع أريد أن أتحدث فيه».

ـ «حسنا إذا لن أخبرك عن الشاب الذي تعرفت عليه!»

انتفضت قدس بسرعة ورمت الكتاب من يدها:

ـ «آه أيتها الساقطة! احك لي! هيا بسرعة! أليس لديه صديق!»

ـ «هاها! ها أنت تريدين التحدث الآن! كم أحب هذه النظرة في عينيك!»

هكذا كان الحال في الدير، فمجموعة فتيات مراهقات بتدفق مضطرب للهرمونات لا يرين أي رجل أو يحتككن به، ستكون كلمة «شاب» بمثابة قنبلة تلقى على مسامعهن.

ـ «هيا أخبريني وإلا أخبرت المشرفة! ستعاقبك بشدة يا بائعة الهوى!»

ـ «اخرسي ودعيني أحكي لك! شاهدت أحد الشباب يمر صدفة أمام السور المقابل للباحة الخلفية، لقد ابتسم لي فارتبكت ثم رمى إلي ورقة، ها هي ذي!»

أخرجت مونيكا من جيبها ورقة مطوية، فتحتها وقرأت بصوت عال:

«اسـمي كزافيـه، ولقـد رأيتـك مـرارا وأعجبـت بـك، هـل تقبلـين أن تكـوني صديقتـي؟»

صرخـت الفتاتـان معـا: «Si!» وأخذتـا بالضحـك بصـوت عـال والفرحـة تملؤهـما.

أمسـكت مونيـكا الورقـة ووضعتهـا في قلبهـا وأخـذت تنظـر مـع صديقتهـا إلى السـقف نظـرة حالمـة: «سـأقبل حتـما إن طلـب الـزواج منـي!»

ـ «أنت تستبقين الأمور! هل هو وسيم؟»

ـ «بالطبـع هـو كذلـك! وسـيم بملامـح رجوليـة وشـعر مثـير وابتسـامة سـاحرة! آه يـا قـدس أنـا أحبـه!»

ـ «أنـا سـعيدة جـدا مـن أجلـك يـا صديقتـي! ليتنـي أجـد فـارس أحلامـي أيضـا! أريـد أن أذهـب معـه إلى آخـر العـالم!»

كانـت قـدس تنتظـر بفـارغ الصـبر أن تصـل إلى سـن الثامنـة عـشر كي تبـدأ حياتهـا، فالديـر بالنسـبة لهـا لم يكـن سـوى سـجنا تقـضي فيـه عـشر سـنوات مـن عمرهـا بتهمـة الـولادة مـن أم مهملـة! كانـت أحلامهـا لا تنتهـي، ورغباتهـا مختلطـة، فهـي تريـد أن تنـسى كل شيء وتولـد مـن جديـد وتصـير سـيدة أعـمال ناجحـة، وفي نفـس الوقـت تريـد أن تنبـش المـاضي وتبحـث عـن أمهـا وعـن أهلهـا وعـن دينهـا.

ـ « قـدس، أريـد أن أخـبرك بأمـر مـا، لقـد لاحظـت المشرفـات

انعزالك عن الجميع وهن خائفات عليك كثيرا، وقد كلفنني بمراقبتك وقبلت بذلك لأنني صديقتك وأخاف عليك أيضا، عليك أن تتشاركي مع الفتيات في كل شيء حتى ولو كنت لا تريدين ذلك، أنت لا تريدين أن ينتهي بك الأمر بحصص المعالجة النفسية أليس كذلك؟»

ـ « أنا حزينة يا صديقتي العزيزة، أنا أنعزل لأنني أفكر كثيرا في ماضي التعيس ومستقبلي الغامض، أشعر أنني مختلفة كثيرا عن بقية الفتيات، لقد كنت أحس بالإنتماء قبلا لكنني الآن لا أفعل، أنا مكتئبة يا مونيكا، ولن يزيدني الإختلاط مع الناس سوى قلقا وضجرا فدعيني أرجوك!»

ـ «قلبي ينفطر عليك يا حبيبتي! لا تفعلي ذلك أرجوك! أنا هنا معك، صديقتك الوحيدة! هيا معي الآن الفتيات يلعبن لعبة veo veo لنلعب معهن!»

جذبت مونيكا صديقتها عنوة من يدها وأخذتها إلى الغرفة المقابلة أين كانت الفتيات مجتمعات في الشرفة على شكل حلقة يلعبن لعبة veo veo حيث تقول إحداهن «أرى أرى» فتقول الأخريات «ماذا ترين؟» فتجيبهن « شيء يبدأ اسمه بحرف الميم!» فتبدأ الفتيات بالإجابة: «مقهى؟»، «لا!» تقول أخرى: «مخزن؟»، «لا»، تقول أخرى بحماس: «مطعم!»، «أجل! هذه هي الإجابة الصحيحة! هيا إنه دورك الآن!»

انضمت قدس إليهن، قالت إحدى الفتيات: «لدينا شيء هنا

يبدأ اسمه بحرف الألف!»، «أنبوب؟»، «لا»، «أرض؟»، «لا»، نطقت قدس بحزن: «أم!»، «صحيح! ها هي ذي أم مع ابنها في الشارع كيف لم ترينها يا غبيات!»

سكت الجميع فجأة، فقد تذكرن جميعهن أنهن مجتمعات هنا لأنهن لا يملكن ذلك الشيء الذي يبدأ اسمه بحرف الألف! وقفت قدس ونظرت إلى الجميع قائلة: «لعبة سخيفة!» ثم خرجت وسط ذهول الجميع!

مرت الأيام وحالة قدس تنتقل من السيء إلى الأسوأ، لطالما وجدت نفسها واقفة أمام صورة مريم العذراء تشكوها همها وألمها: «أنا ضائعة أيتها العذراء، أمي تركتني، الفتيات يقلن أنها تقززت مني منذ ولادتي، وأنا لا أتذكر شيئا سوى أنها كانت تكرهني! هل تكرهينني أيضا أيتها القديسة؟ أنا متأكدة أنك تفعلين لأنني لا أنتمي إلى أي دين وإلى أية فئة! فالأخوات لا يرغبن بتركي أعتنق دينهن، إنهن يقلن أنني مسلمة، ما هو الإسلام أيتها العذراء؟ أجيبيني أرجوك! الفتيات أخبرنني أنه علي أن أعتنق المسيحية حين أبلغ سن الرشد، لقد أخبرنني أن ديني الأصلي يدعو إلى القتل والذبح وسفك الدماء! لقد أخبرنني أنني إن اعتنقت الإسلام فعلي أن أرتدي لباسا أسود وأصير أمة عند الرجال أساعدهم على ذبح الأبرياء! هل هذا صحيح يا سيدتي؟ أجيبيني أرجوك! فأنا لا أعلم حقا ماذا أفعل أو ماذا أريد! لكنني لا أريد أن أكون سيئة! هل أخبرك سرا؟ أمي امرأة سيئة جدا، لقد رمتني في الميتم يا سيدتي! كيف لأم أن ترمي ابنتها؟ ما ذنبي أنا؟ لما ولدتني أصلا؟ لما أسجن بلا ذنب؟ أجيبيني ولا تحدقي في هكذا! هل ترين أنني غريبة

أيضا؟ هل تحسين أنني مختلفة؟ هل تكرهينني أنت أيضا! حسنا أنا ذاهبة! أنا آسفة!»

أخذت قدس تبكي بحرقة، فلطالما آلمتها النظرة التي صارت الفتيات ترمقنها بها منذ أن اجتزن مرحلة الطفولة، لقد جعلنها تحس بالغربة بينهن وأنها لا تنتمي إليهن، وهذا ما خلق في نفسها عقدة الانتماء، مما جعلها تشعر بالضياع وهي ابنة السادسة عشر.

ذهبت مباشرة إلى غرفتها، فتحت درج خزانتها، وأخرجت مجموعتها من المناديل القماشية، أخذت بربط كل منديل مع الآخر حتى انتهت من صنع حبل متين، نظرت إليه بحزم وقالت: «لا أستطيع انتظار عامين آخرين!»

سمعت صوت مشي في الرواق، لقد كانت تعرف كل شخص من صوت مشيته بسبب طول العشرة، كانت الخطوات المستعجلة خطوات الراهبة «آناستازيا» المشرفة على الفتيات.

قامت بسرعة بإخفاء الحبل في الدرج مجددا، دخلت آناستازيا فوجدتها في السرير تئن وتبكي.

ـ «ما بك يا ابنتي!»

ـ «إنها معدتي! أحس بآلام شديدة! آي!»

ـ « لا بد أنه تسمم! لقد أخبرتك مرارا أن إحضار أطعمة من الخارج يعد أمرا غير قانوني! ستقضين ليلتك في عيادة الدير حتى تشفين وفي الغد سنتكلم حول مخالفتك للأوامر!»

ذهبت قدس إلى العيادة، واستلقت على السرير أين أعطتها الممرضة أدوية مضادة، وقارورة «سيروم»، ثم أخبرتها أنه يمنع عليها منعا باتا مغادرة العيادة حتى الثامنة صباحا، أومأت الفتاة برأسها موافقة، وأخذت تراقب الممرضة حتى خرجت وأغلقت باب الغرفة، انتظرت قليلا ثم قامت بنزع إبرة السيروم واتجهت مباشرة نحو النافذة، ابتسمت وقالت «أنا قادمة يا برشلونة!»

كانت الساعة تشير إلى التاسعة ليلا، قامت المشرفة بإطفاء الأنوار وتأكدت أن جميع الفتيات قد ذهبن إلى مخادعهن ثم أوت إلى فراشها، سمعت قدس صوت طرق خفيف فقامت بحذر وفتحت الباب بهدوء:

ـ « ها هو الحبل! تصبحين على خير!»

ـ « انتظري يا مونيكا! عانقيني!»

ـ « اتركيني يا مجنونة! سوف تضعين نفسك في مشاكل لا مخرج منها، لقد حاولت إقناعك أن لا تفعليها لكنك لا تفهمين! إن تم إلقاء القبض عليك فأنا لا أعرفك وأنت لا تعرفينني!»

ذهبت مونيكا إلى مخدعها، وأخذت تمشي بسرعة في الرواق، وكانت قدس تشاهدها وهي تبتعد، وفجأة التفتت ورجعت مسرعة وارتمت في حضن صديقتها وهي تبكي بحرقة: «اعتني بنفسك أرجوك! أنا أحبك كثيرا!»

بكت الفتاتان حتى جفت مآقيهما، ثم ودعت كل منهما الأخرى،

وذهبت مونيكا إلى مخدعها بينما أغلقت قدس باب العيادة واتجهت نحو النافذة، التي كانت قريبة جدا من الشارع، قامت برمي حقيبتها أولا ثم ربطت طرف الحبل بالنافذة وتركت الباقي مدلى في الخارج، أمسكت بالحبل وتأكدت من متانته ثم أخذت تنزل رويدا رويدا حتى وصلت إلى الأرض، حملت حقيبتها الصغيرة، وأخذت تمشي والخوف يتملكها، البرد والظلام وعلامات الإستفهام والتعجب كلها كانت تحيط بها، كان التليفريك لا يعمل ليلا، وكذا القطار، لذلك كان عليها أن تجد سيارة أجرة لتأخذها إلى مدينة برشلونة، ولكن لم تكن هنالك أية سيارة! أحست فجأة بالندم وأرادت العودة إلى الدير لكن تلك الفتاة الغاضبة داخلها، الناقمة على الجميع دفعتها إلى المضي قدما!

«ابنتي، هل تودين الذهاب إلى مكان ما؟»، التفتت لتجد سيارة بيضاء بها رجل كهل يناهز الخمسين من العمر، نظرت إليه لكنها لم تقو على الكلام، فقد حكت لها الأخوات كثيرا عن قصص شابات ركبن مع غريب فكان مصير المحظوظات منهن أنهن تعرضن للاغتصاب والرمي على قارعة الطريق، أما الأخريات فقد تم بعدها ذبحهن وتقطيع أجسادهن ووضعها في أكياس بلاستيكية ثم رميها في القمامة!

أجابته: «لا أريد شيئا!»، نظر إليها ثم قال: «حسنا كما تريدين»، انطلق الرجل ليكمل طريقه فلحقته قدس وهي تصرخ: «سيدي! سيدي! توقف من فضلك!»

لقد كانت متأكدة أنها إن لم تذهب معه فقد لا يأتي أحد آخر وستبيت ليلتها في العراء، أو ربما حدث الأسوأ، ويتم الإعتداء عليها من طرف أحد المدمنين أو السكيرين فتذبح وتقطّع وترمى أشلاء في القمامة!

الطريق إلى برشلونة قريبة، لكن قدس تحس أنها رحلة إلى مالا نهاية، كانت خائفة جدا لدرجة أنها أصبحت لا تستطيع تحريك ساقيها إلا بصعوبة، وكانت تنظر إلى السائق بحذر وكلما قرب يده من علبة التروس كي يغير السرعة، تقوم بضم رجليها والالتصاق بباب السيارة ظنا منها أنه يود الإعتداء عليها.

ـ «لا تخافي يا ابنتي، ابنتي الصغيرة في مثل سنك، كان عليك أن لا تسافري في هذا الوقت المتأخر من الليل، هنالك تغطية انترنت جيدة هنا، يمكنك أن تبحري في الانترنت ريثما نصل».

سكتت قدس، لأنها لا تستطيع أن تخبره أنها لا تمتلك هاتفا، فقد كانت حيازة الهواتف ممنوعة في الدير، وحتى الاتصال بالأنترنت لا يتم إلا بحضور المشرفات، فهو مقتصر على البحوث العلمية في موسوعات الكترونية كموسوعة ويكيبيديا في وقتنا الحالي مثلا!

لقد تعلمت قدس أن الانترنت هي «شيطان العصر» والانغماس فيها يفسد «مكارم الأخلاق».

ـ «لقد وصلنا، أين تريدين الذهاب تحديدا؟»

ـ «فندق برشلونة من فضلك».

ـ «حسنا!»

نزلت قدس من السيارة واتجهت نحو باب الفندق، ثم

ذهبت إلى جناح الاستقبال.

ـ «غرفة منفردة 50 أورو لليلة، بطاقة الهوية من فضلك!» قالها الموظف بسرعة ودون النظر إليها.

كانت قدس قد رتبت لكل شيء، سرقت جميع الوثائق المتعلقة بها من مكتب رئيسة الدير، وأخذت الأموال التي وفرتها من المنحة التي تعطى لهن كل ثلاثة أشهر بالإضافة إلى الأموال التي منحتها إياها صديقتها مونيكا.

ملأت استمارة المعلومات، قامت بتزوير سنها، دفعت الأموال، أخذت مفتاح الغرفة واتجهت نحو السلالم، أخيرا وجدت نفسها في غرفة مستقلة بها سرير ومكتب، وضعت حقيبتها على الأرض وارتمت فوق السرير.

كان التعب قد نال منها تماما لذلك فهي لم تحس بشيء إلا حينما تسللت أشعة الشمس إلى غرفتها، فتحت عينيها وأخذت في تذكر كل شيء: الحبل، الشارع، السائق، الفندق! ابتسمت قائلة: «أجل لقد فعلتها!»

كانت قدس سعيدة جدا، لكن السعادة سرعان ما غادرتها حينما تذكرت ما لم تخطط له: «ماهي الخطوة التالية!»

لقد خططت الفتاة لكيفية هروبها من الدير حتى وصولها إلى الفندق، لكنها لم تفكر أبدا فيما تفعله بعدها، أخذت نفسا عميقا ثم قالت: «أموالي ستنفذ قريبا ولن يكون لدي ما أعيل

بـه نفـسي، كـما أن مديـرة الديـر سـتبلغ عنـي وسـتبحث الشرطـة في جميـع الفنـادق، عـلي أن أبحـث عـن عمـل مسـتقر، ومـكان آخـر للمبيت».

خرجـت قـدس إلى المدينـة وبـدأت رحلتهـا في البحـث عـن عمـل، كانـت تذهـب لجميـع المحـلات وتقـدم نفسـها: «اسـمي ناتاشـا، عمـري 20 سـنة وأنـا أبحـث عـن عمـل ومـكان للمبيـت» وكانـت الإجابـات هـي نفسـها: «آسـف يـا آنسـة، ليـس لدينـا وظيفـة لـك».

كان تنكـر قـدس جيـدا، خاصـة وأنهـا تبـدو حقـا في العشرينيـات مـن عمرهـا، وسـاعدتها ملامحهـا الجزائريـة الشـبيهة بالملامـح الاسـبانية في عـدم كشـف هويتهـا، كانـت تمتلـك شـعرا أسـود طويـلا وحاجبـين دقيقـين وعينـين سـوداوين وأنفـا طويـلا نوعـا مـا وفـما صغـيرا ولونـا خمريـا، وكانـت فارعـة الطـول ممشـوقة القـوام مكتملـة الأنوثـة.

كلـل يومهـا بالفشـل، رجعـت يائسـة إلى الفنـدق وهـي تقـول في قـرارة نفسـها: «لـن أعـود إلى الديـر! سـأعاقب بشـدة! لقـد قطعـت شـوطا لا بـأس بـه وأنـا أحتـاج فقـط إلى بعـض الحـظ!»

دخلت إلى الفندق واتجهت إلى غرفتها وخيبة الأمل تثقلها.

ـ « آنستي، هل تودين البقاء أكثر في الفندق؟»

ـ « سأحجز ليوم آخر فقط».

ـ « آسف آنستي لا يمكنك ذلك».

ـ « سأدفع لك!»

ـ « المشكل ليس في الأموال، المشكل أعمق بكثير من ذلك يا قدس!»

تجمدت قدس في مكانها، كانت نظرات شاب الاستقبال وطريقة نطقه لاسمها كفيلة بأن تدرك أنه كشف أمرها، نظرت إلى الطاولة التي كانت بجانبه فوجدت ورقة بها صورتها واسمها الحقيقي وكلمة «مفقود».

ـ « لقد أتت الشرطة اليوم للبحث عنك، لا أعلم تحديدا ما فعلتِ، لكنني أخبرتهم أنني لم أرك، لا أدرِي لما فعلت ذلك، لكن بقاءك هنا سيسبب لي مشاكل أنا في غنى عنها، أرجو أن ترحلي الآن من فضلك».

أحست قدس بالدنيا أظلمت في وجهها، فهي لا تستطيع الذهاب إلى أي فندق لأن صورها الآن في كل مكان، نظرت إلى الشاب نظرة استعطاف قائلة: «يوم واحد فقط أرجوك، ليس لدي مكان أذهب إليه!»

نظر إليها مليا ثم قال: «آسف آنستي، لا يمكنني أن أتركك تقضين الليلة هنا، فأنا لا أملك هذا الفندق، وسيطردني مالكه إن علم بالأمر، لكن يمكنني أن أستضيفك في منزلي حتى تتمكني من لملمة شتاتك».

تذكرت قدس مرة أخرى كلام الأخوات: «الغريب سيغتصبك ثم يذبحك ويقص أطرافك ويضعها في أكياس بلاستيكية ثم

يرميهـا في القمامـة»، نظـرت مليـا إلى الشـاب ولم تتمكـن مـن أن تربطـه بصـورة القاتـل المتسلسـل، فقـد كان طويـل القامـة ذا شـعر أسـود وحواجـب غليظـة وعينـين جميلتـين تحمـلان بريـق الـبراءة في بؤبئهـما، أنـف وفـم صغـيران ولـون أسـمر وجسـم ريـاضي.

ـ «أقـدر لـك هـذا» قالـت قـدس: «لـن أكـون عبئـا ثقيـلا عليـك، ولـن أطيـل المكـوث عنـدك».

**********

كانـت الأخـت مـيري متوتـرة جـدا، أخـذت تقضـم أظافرهـا بينـما تجـوب مكتبهـا جيئـة وذهابـا، رن هاتفهـا فقامـت بالـرد: «مرحبـا، أجـل معـك رئيسـة الديـر، سـنجدها يـا أبـت أعـذر هفـوتي، إنهـا ابنتنـا جميعـا! لا بـأس أنـا بانتظـارك».

كانـت مـيري في حـيرة شـديدة، فرغـم سـنواتها العديـدة التـي قضتهـا في الديـر منـذ أن كانـت مشرفـة عاديـة، وحتـى ترقيتهـا إلى رئيسـة مشرفـات وصـولا إلى تعيينهـا رئيسـة للديـر، لم يحـدث أن هربـت إحداهـن كـما فعلـت قـدس، كانـت تفكـر في الحجـة التـي تقنـع بهـا مديـر الديـر لـكي تخفـف قليـلا مـن لومـه لهـا فلـم تجـد مـا تقـول. وبينـما كانـت مسـتغرقة في التفكـير فتـح البـاب بقـوة ودخـل المديـر والغضـب الشـديد واضـح في ملامحـه.

ـ «لما أنت هنا أيتها الأخت؟»

ـ «ماذا تقصد يا أبت؟»

ـ «مـا وظيفتـك هنـا مادامـت بناتنـا يهربـن مـن الديـر وكأنهـن في سـجن! هـذا ديـر سـانتا ماريـا دي مونتسـيرات وليـس أي ديـر! هـل تعلمـين مـا معنـى أن ينتـشر خـبر فـرار فتـاة مـن الديـر؟ هـذا يعنـي أننـا قـد حكمنـا عـلى سـمعتنا بالمـوت! مـاذا سـيقول النـاس عنـا! أليـس هنالـك متابعـة؟ أليـس هنالـك مشرفـات؟ أيـن هـو تقريـر حالتهـا النفسـية؟ كيـف لم تكتشـفي نواياهـا قبـل أن تقـرر الهـرب؟ دعينـي أحـزر! إنـه الإهـمال يـا أختـاه! أنـت لا تهتمـين ببناتـك لا أنـت ولا المشرفـات، لقـد تسـامحت معـك كثـيرا يـا مـيري، هـذا بعـد أن غفـرت لـك كل أخطائـك! كلانـا يعـرف أنـك لسـت صالحـة، هـل تظنـين أننـي نسـيت علاقتـك مـع ألفونسـو؟ هـل تظنـين أننـي لا أعلـم بمـا تفعلـه الأخـت نانـا وبعلمـك أيضـا؟ لقـد تسـامحت معـك كثـيرا، وأظـن أن هـذا التسـامح هـو سـبب إهمالـك لمرؤوسـيك، انظـري إلي جيـدا يـا مـيري، أنـا لا أمـزح، لديـك فرصـة أخـيرة وهـي أن تجـدي الفتـاة في أقـرب وقـت، وإلا فعليـك البحـث عـن مـكان آخـر يليـق بـك، وأظننـي أعـرف واحـدا يليـق بـك تبعـا لمـا أعرفـه عـن ماضيـك!»

خـرج مديـر الديـر مـن المكتـب وأغلـق البـاب بقـوة، بينـما شرعـت مـيري في البـكاء والنحيـب، تذكـرت ماضيهـا جيـدا، وتذكـرت أخطـاء المراهقـة التـي لا تغتفـر، فالمـرأة حـين تخطـئ، تبقـى تلـك الخطيئـة تلاحقهـا حتـى تدخـل قبرهـا، ولـو نسـت أو تناسـت مـا حـدث لهـا فسـيأتي بعـد خمسـين سـنة مـن يذكرهـا بخطيئتهـا، وكأن العـالم يـأبى المسـامحة والغفـران مـع المـرأة!

تذكـرت «ألفونسـو»، ذلـك الشـاب الوسـيم الـذي قـدم لهـا الحـب

الـذي كانـت تبحـث عنـه طـوال حياتهـا، قـام برعايتهـا، حمايتهـا، أعطاهـا الإحسـاس بالأمـان الـذي كان ينقصهـا طـوال حياتهـا، علمهـا أبجديـات العشـق بأسـمى معانيـه، رسـم الضحكـة عـلى محياهـا، زرع قطعـة منـه في أحشـائها، ثـم تركهـا وذهـب! ذهـب إلى الأبـد تـاركا إياهـا بـلا رعايـة، ولا حمايـة، تـرك الخـوف يسـتبد بهـا، جعلهـا تشـكك في كل حـرف مـن أبجديـات العشـق التـي علمهـا لهـا، زرع الحـزن في محياهـا، وجعلهـا تكـره تلـك البـذرة التـي في أحشـائها، تلـك البـذرة التـي حكمـت عليهـا بالمـوت وبذلـك حكمـت عـلى نفسـها هـي الأخـرى!

ـ «آناستازيا!»

ـ « نعم أختاه».

ـ «أحضري مونيكا حالا إلى هنا!»

دخلـت مونيـكا المكتـب وأغلقـت البـاب مـن خلفهـا وتقدمـت نحـو الراهبـة.

ـ «أين هي صديقتك؟»

ـ «أنا لا أعلم فهي لم تخبرني بشيء».

ـ « لا تسـتغبيني أيتهـا الفتـاة أرجـوك! كيـف لم تخبرك بمـشروع هروبها وأنـت صديقتهـا الحميمـة؟ لقـد وثقـت بـك، وكلفتـك بمراقبتهـا لأننـي كنـت أريـد حمايتهـا، لكـن بـدل ذلـك سـاعدتها عـلى الهـروب، أيـن هـي الآن وإلا اسـتدعيت الشرطـة للتحقيـق معـك!»

ـ «أنـا لا أعلـم شـيئا يـا أختـاه! صدقينـي! هـي لم تخـبرني

بـشيء!»

ـ «آناستازيا! أدخلي الفتاتين!»

دخلـت فتاتـان إلى المكتـب ووقفتـا أمـام الرئيسـة، سـألتهما عـن ليلـة الحادثـة فاتفقتـا عـلى أنهـما رأتـا مونيـكا تخـرج مـن الغرفـة حـوالي السـاعة التاسـعة ليـلا حاملـة نفـس الحبـل الـذي اسـتعملته قـدس في الهـروب مـن نافـذة العيـادة.

ـ «هيا تكلمي الآن!»

ـ «إنهما تكذبان، أنا لا أعلم شيئا».

حاولـت مـيري بـكل الطـرق أن تضغـط عـلى مونيـكا كي تعـترف، لكـن هـذه الأخـيرة كانـت صامـدة جـدا، فقـد تكـون روابـط الصداقـة في بعـض العلاقـات متينـة إلى درجـة أن يضحـي الصديـق مـن أجـل صديقـه ويـذود عنـه أكـثر مـما يـذود عـن نفسـه.

وجـدت مونيـكا نفسـها في غرفـة العقـاب، وكـم كانـت تحـب هـذه الغرفـة البعيـدة عـن تطفـلات البـشر! وضعـت أذنهـا عـلى البـاب كي تتأكـد أنـه لا يوجـد أي شـخص في الـرواق، ثـم أخرجـت مـن ملابسـها هاتفـا كانـت قـد اختلسـته مؤخـرا إلى داخـل الديـر وذهبـت مبـاشرة إلى الرسـائل النصيـة القصـيرة، دخلـت إلى نـص المحادثـة الوحيـد الـذي لديهـا «Mi amor» وأرسـلت لـه: «حبيبـي كزافيـه، لقـد اشـتقت إليـك كثـيرا، الجـو خانـق هنـا جـدا يـا نصفـي الآخـر، أريـد أن أخـرج مـن هـذا المـكان في أقـرب وقـت، صديقتـي قـدس قـد هربـت مـن الديـر، لقـد حذرتهـا مـرارا مـن ذلـك، وأخبرتهـا

أن تصرفها طائش، لكنني الآن أحسدها يا عزيزي، لقد امتلكت الشجاعة التي لم أمتلكها، الشجاعة التي تجعلها تقول تبا للواقع وتمضي قدما لتحقيق أحلامها، لقد ساعدتها على الهروب يا روحي لكنني لم أتمكن من الهرب معها، وأنا الآن أتلقى اللوم لأن زميلتيّ في الغرفة وشتا بي، وقد هددتني رئيسة الدير أنها ستقدمني إلى الشرطة للتحقيق معي، أنا لن أشي بصديقتي ولو كلفني الأمر حريتي... بالحديث عن الحرية أريد أن أخرج من هذا السجن يا رجلي، لكن الحراسة مشددة جدا منذ هروب صديقتي، هل يمكنك أن تنقذ أميرتك يا أميري؟»

كان كزافيه في منزله الذي يبعد أمتارا عن الدير، سمع صوت رسالة نصية في هاتفه فأسرع بفتحها ليجد رسالة من الفتاة التي أحبها من أول نظرة تقول له فيها بما ملخصه «حبيبتك الضعيفة تحتاجك، تعال لتنقذها يا أيها القوي!»

لطالما كانت نقطة ضعف الرجل استجداء المرأة له واستعطافه وإبداء حاجتها إليه، والنساء اللواتي يتقنّ فن الاستضعاف أمام الرجل ويجعلنه يحس بقوته ورجولته يستطعن التحكم به كيفما شئن! وكم من رجال رضوا أن يلاقوا حتفهم في سبيل دمعة أنثى أو نظراتها المستضعفة!

أسرع كزافيه بالرد: «أميرتي مونيكا، لن يهدأ لي بال ولن يغمض لي جفن حتى أرى حبيبتي خارج ذلك السجن، سأتحدى العالم من أجلك، سأهدم الجبال إن أردت، سأقدم نفسي وروحي

فـداكِ! سأرسـم خطـة لإخراجـك مـن هنـاك، وسـأعتني بـك كزهـرة بابونـج جميلـة! يـا زهـرة الأمـل! سـأعتني بابنتـي أبـد الدهـر! لا تحـزني، لا تكتئبـي، تذكـري كلـما فقـدت الأمـل أن لديـك رجـلا مسـتعد لأن يفعـل أي شيء في سـبيل إرضائـك! أنـا أحبـك يـا مونيـكا! أنـا أعشـقك!»

انتظـر كزافيـه مونيـكا كي تـرد عـلى رسـالته، لكنهـا لم تفعـل، اسـتبد القلـق بـه وأخـذ يفكـر في طريقـة لـكي يخـرج بهـا حبيبتـه، فهـو الآن الفـارس الـذي تنتظـره أميرتـه أن يـأتي إليهـا بفـرس أبيـض كي ينقذهـا مـن الأشرار، وعليـه أن يـؤدي هـذا العمـل عـلى أكمـل وجـه!

أخـذ يفكـر ويفكـر حتـى اسـتبد بـه القلـق لأنـه لم يهتـدِ إلى أيـة طريقـة ناجعـة، أراد الترويـح عـن نفسـه فشـغل التليفزيـون وبـدأ بالبحـث عـن أفـلام ومسلسـلات، لكنـه لم يتمكـن مـن فهـم أي مشـهد، لأن عقلـه كان منصبـا عـلى موضـوع واحـد: «مونيـكا!»، فالحـب حـين يسـتبد بنـا، يخرجنـا مـن هـذا العـالم نحـو عـالم آخـر افـتراضي، عـالم فيـه نحـن ومـن نحـب فقـط، لا مـكان فيـه لمسلسـل أو فلـم أو كـرة قـدم أو طعـام أو صديـق أو أهـل أو قـط وديـع!

في نهايـة الأمـر لم يجـد حـلا سـوى أن يسـتخدم نفـوذ أبيـه في ذلـك، فأبـوه راهـب في ذلـك الديـر وعليـه أن يجـد طريقـة كي يدخـل معـه، وهنالـك يفكـر في طريقـة لإخـراج حبيبتـه.

ذهـب إلى غرفـة أبيـه فوجـده في كرسـيه العتيـق، يحمـل الإنجيـل بيديـه ويقـرأ فيـه بصـوت عـال: «أبانـا الـذي في السـماوات

أعطنا خبز يومنا، خبزنا كفافنا»، «آمين» قال كزافيه بصوت قوي وخاشع.

ـ «أنت لا تقرأ الكتاب المقدس كثيرا يا بني، كيف تنوي أن يخلصك اليسوع؟»

ـ «أنت محق يا أبي، ولطالما كنت محقا في نصائحك لي بأن أتبع تعليمات اليسوع، وأستمع إلى القصص والمواعظ الدينية».

ـ «تعال غدا إلى الكنيسة، ستكون شابا صالحا يا بني».

ـ «أريد ذلك فعلا يا أبتِ، وأريد زيارة كل بيوت الرب، لطالما حلمت بزيارة دير سانتا ماريا، والتعرف على تاريخ هذه التحفة الفنية العريقة».

ـ «سآخذك معي في الغد يا بني، أنا سعيد جدا لأنك اخترت طريق الرب أخيرا».

ـ «أجل يا أبتِ، لقد اخترت طريق الرب، لقد اخترت طريق الرب!»

انسحب كزافيه راجعا إلى غرفته، وعيناه ممتلئتان قلوبا، لقد كان يعلم أنه اختار طريق الرب الذي سيأخذه إلى حبيبته، حبيبته التي اختارها له الرب طريقا! قال في نفسه وهو يستلقي على سريره: «لقد اخترت طريق الحب! هذا عادل كفاية!»

في صباح الغد، كان الولد يسابق أباه في طريقهم إلى الدير، كان الأب سعيدا لأن الإيمان دخل قلب ولده أخيرا، ولو لم يكن ساذجا كفاية لعرف أن الحب من دخل قلبه، والحب أقوى من الإيمان، لأنه يمكننا أن نحب دون أن نؤمن، لكن من المستحيل أن نؤمن دون أن نحب!

كان الابن غارقا في أحلامه بينما أبوه مستغرق في ثرثرته: «....وهو دير للرهبنة البندكتية، سأريك نصب عذراء مونتسيرات! جميع الشباب يأتون إلى هنا من كل البقاع ليقوموا بمسيرات ليلية على الأقل مرة واحدة في حياتهم، سنزور المتحف أيضا! وسترى التحف الفنية لبابلو بيكاسو وإل غريكو وسلفادور دالي!»

كانت التحفة الفنية الوحيدة التي أراد كزافيه رؤيتها هي مونيكا، تلك الفتاة التي يرى أنها تملك أجمل قوام في مجرة «درب التبانة» وربما في مجرة «المرأة المسلسلة» أيضا! تلك الفتاة التي يطلق عليها في نفسه لقب «سيدة الانحناءات» لما تملكه من انحناءات كثيرة في جسدها المتكامل، أخذ يفكر في انحناء رقبتها: «سأحتل الدير من أجل ذلك الانحناء القاتل!»

دخل الابن الدير وبدأ باستكشافه، تمكن من التسلل إلى الساحة الخلفية المطلة على نافذة مونيكا، أخذ يرمي الحجارة الصغيرة على النافذة، ففتحت هذه الأخيرة وصرخت مندهشة: «كزافيه! ماذا تفعل هنا يا أيها الغبي! سوف توقع نفسك وتوقعني في ورطة!»

ـ «لقد وجدت طريقا للخروج، لقد أتيت مع أبي اليوم واستغليت سذاجته للدخول إلى هنا، ثم تسللت إلى كل ردهة ورواق وغرفة، ووجدت طريقا سهلا لإخراجك من هنا، الليلة في منتصف الليل سأكون هنا، ارتدي سروالا وحذاء رياضيا يا حبيبة قلبي!»

ـ «آه كم أنت مجنون! لكنني خائفة يا حبيبي! خائفة جدا!»

ـ «أتخافين وأنت معي؟ هل لديك أدنى فكرة عما يمكنني أن أفعله من أجلك! سأقتل الخوف إن لزم الأمر حتى لا يتجرأ ويتسرب إلى قلبك مجددا! سأحارب العالم من أجلك يا أنثاي! هل تعلمين كم أعشقك؟ أنا لا أتكلم عن ذلك العشق الذي يجعل الرجل يقدم لحبيبته قطعة شوكولاتة فاخرة ووردة حمراء جميلة ويقول لها أحبك! أنا أعشقك ذلك العشق الذي يجعلني أقيم ثورة من أجلك! أحارب التنين في سبيلك! أحرك جيوشا لنجدتك! أنا أعشقك ذلك العشق الذي يجعلني أتحدى أبي وأمي وعائلتي من أجلك! العشق الذي يجعلني لا أخاف إن عرف العالم بحبنا، لأنني أريدهم أن يعرفوا، أريد أن أصرخ للعالم أنك حبيبتي! فأنت ستكونين في الأخير زوجتي، زوجتي التي تكملني وأكملها، أنثاي التي تحتويني وأحتويها! أنا أحبك يا مونيكا! أنا أعشقك! أنا أهيم بك!»

ـ «آه يا حبيبي! سأذهب معك إلى آخر الدنيا! أنا سعيدة ما دمت معك، هانئة ما دمت حبيبي! تعال يا روحي، تعال إلي

الليلة وسنذهب إلى حيث تريد، لا أظنني سأفكر في مستقبلي ما دمت معك، لأنك أنت هو المستقبل! أنت شهم يا كزافيه، والمرأة لا تحتاج سوى رجل شهم تتكل عليه لتواجه مصاعب الدنيا، فمهما كانت قوية ومستقلة فهي بحاجة إلى رجل أقوى منها ترتكز عليه في لحظات ضعفها، وأنت يا رجلي ركيزتي في الدنيا، سندي في هذا العالم المتوحش! سنلتقي الليلة يا زوجي، سأكون بانتظارك!»

رجع كزافيه بسرعة إلى المتحف، أين كان أبوه بانتظاره، ناداه قائلا:

ـ «كزافيه لقد قضيت وقتا طويلا، لقد أخبرتك أن دورة المياه في آخر هذا الرواق فقط!»

ـ «آسف يا أبي لكنني أحس بألم يمزق معدتي».

ـ «لكنني لم أرك بقية المتحف بعد!»

ـ «مرة أخرى يا أبي، علي أن أعود الآن، إلى اللقاء!»

ترك الابن أباه في حيرة واتجه مباشرة إلى البيت، فعليه الآن أن يأخذ قسطا من الراحة ويفكر جيدا فهنالك ليلة طويلة في انتظاره، ليلة ستحدد مستقبله وعلاقته مع كل أحبائه!

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر وخمس وخمسين دقيقة حينما كان كزافيه يهم برمي حصاة على نافذة مونيكا، لكن النافذة فتحت قبل ذلك وأطلت منها:

ـ « لقد أتيت مبكرا! مازال هنالك خمس دقائق على الموعد!»

ـ « أنا متحمس يا جميلة! هيا علقي الحبل!»

قامت مونيكا بالنزول من الحبل وما إن وصلت إلى الأرض حتى ارتمت في أحضان كزافيه.

ـ « آه كم اشتقت إليك يا حبيبي! اتركني في حضنك».

ـ «أود ذلك فعلا يا حبيبة قلبي لكن ليس لدينا وقت لذلك! هيا اتبعيني!»

أمسك كزافيه يد مونيكا وخرجا من الباحة الخلفية نحو المتحف، متسترين بالحشائش والأشجار التي كانت على طول الطريق، ذهبا نحو نافذة المتحف أين التفت إلى مونيكا: «هيا سأحملك افتحي النافذة وادخلي منها».

ـ «لكن النافذة مغلقة من الداخل!»

ـ «لا تخافي لقد اهتممت بأمرها!»

وضعت مونيكا رجلها على يدي كزافيه وحملها نحو النافذة، واستخدمت رجلها الأخرى للتعلق بحافتها، قامت بفتحها ودخلت ثم مدت يدها إلى كزافيه الذي قام بتسلق الجدار وحده.

ـ «يدك الرقيقة لن تسحبني، أتركيها للعزف على القيثارة» قال مازحا.

ـ «بل سأتركها لتصفيف شعرك والاعتناء بهندامك وتغذيتك

جيـدا كي تبقـى قويـا يـا حيـاتي!»

ابتسـم الحبيبـان وأمسـكا بأيـدي بعضهـما وقامـا بالتسـلل بـين قاعـات المتحـف حتـى وصـلا إلى النافـذة المطلـة عـلى الشـارع.

ـ «لقد اهتممت بأمر هذه النافذة أيضا، هيا سأقو.....»

لم يكمـل كزافيـه جملتـه حتـى أحـس بيـد غليظـة تمسـكه مـن سـاعده، التفـت لـيرى حـارس المتحـف ضخـم الجثـة ممسـكا بـه.

ـ «كزافيه أهرب!» صرخت مونيكا.

قـام كزافيـه بـضرب الحـارس بقبضـة يـده بـكل قوتـه، سـقط الرجـلان وبـدآ بالعـراك حتـى أحـس بقطعـة حديديـة بـاردة عـلى رأسـه: «توقـف يـا سـيد وإلا أطلقـت النـار عليـك!»

كان هنالـك حـارس ثـان مصـوب سـلاحه نحـو رأس كزافيـه، لم يكـن لـه بـد سـوى الاستسـلام، قـام الحارسـان باقتيـاد الشـابين إلى مركـز الحراسـة، وكانـت الشرطـة قـد وصلـت وبـدأ المحقـق في ا سـتجو ا بهما :

ـ «إذا فأنت المسؤول عن تهريب الفتيات من الدير؟»

ـ «أنـا لم أهـرب أي فتـاة يـا سـيدي، وهـذه الفتـاة لم تهـرب معـي بـل أنـا مـن خطفتهـا!»

ـ «إنـه يكـذب يـا سـيدي المحقـق، أنـا مـن أرغمتـه عـلى تهريبـي مـن الديـر!»

ضحك محقق الشرطة قائلا: «أنتما تذكرانني بشبابي! الحب والتضحية من أجل الحبيب! ثم العداوة فالخيانة فالاكتئاب! سواء كنت خطفتها أم هربت معك، فأنت يا أيها الشاب متهم بجنحة الاقتحام والكسر العمدي تحت جنح الليل، وتحريض قاصر على الفساد، وإن وجدت شيئا ناقصا في هذا المتحف فسأضيف لك جنحة السرقة، أما أنت أيتها المراهقة فسترجعين إلى الدير أين ستتكفل رئيسته بمعاقبتك!»

أخذت مونيكا في البكاء بشدة، فهي لم تكن تهتم بالعقاب الذي ينتظرها بقدر اهتمامها بمصير حبيبها، قامت الشرطة باقتياد كزافيه إلى مركز الشرطة لاستكمال التحقيق بينما أرجع الحارسان الفتاة الشابة إلى الدير.

وكانت ميري بانتظارها في المكتب، انفجرت في وجهها غاضبة:

ـ «هل أملك ديرا أم بيت دعارة! لقد أحضرتكن بحفاظات تلفكن ومصاصات في فمكن، اعتنيت بكن، ربيتكن على مكارم الأخلاق، درستكن، كي تكبرن نساء خلوقات تربين أجيالا خلوقة، لكن المردود لم يكن كما أردت، أنا الآن أملك مراهقات طائشات يهربن من الدير كبائعات الهوى! لقد خذلتموني كثيرا يا مونيكا! هل أستحق هذا! انظري إلي! لقد ساعدت قدس في هروبها والآن تنوين اللحاق بها أيضا، لما أنت أنانية إلى هذه الدرجة! ألا تعرفين أنك بعملك الطائش هذا ستؤذين أناسا معك! أنا أتعرض للتوبيخ يا مونيكا! وقد هددني مدير الدير بفصلي من العمل، وما السبب؟ تصرفاتكن الطائشة، أنتن اللائي تقابلن الخير بالشر، أنتن من تقطعن اليد التي أطعمتكن، أنظري إلي

جيـدا! سـوف تخبريننـي بمـكان قـدس حـالا، وإلا حرصـت عـلى أن تعيـدي السـنة بسـبب سـوء السـلوك، هـل تريديـن الخـروج مـن الديـر بعـد سـنتين؟ سـأحرص إذا عـلى جعلهـا ثـلاث سـنوات أو أكـثر!».

سـكتت مونيـكا وهـي تسـتمع لكلـمات هـذه المـرأة الغاضبـة، كانـت تفكـر جيـدا في كلامهـا، فهـي لا تريـد أن تعيـد السـنة وفي الوقـت نفسـه لا تسـتطيع خيانـة صديقتهـا، وكلـما أرادت الاختيـار بـين هـذا وذاك لم تسـتطع لأنهـا تجـد نفسـها تفكـر في مصـير حبيبهـا والهواجـس تفتـك بهـا: «آه لابـد أنـه الآن في زنزانـة بـاردة، هـل تنـاول شـيئا مـن الطعـام؟ هـل سـيتركني؟»

ـ «اذهبـي لغرفتـك الآن، سـأترك لـك الوقـت كي تفكـري، وغـدا سـأكون بانتظـار جوابـك».

ذهبـت مونيـكا إلى فراشـها واسـتغرقت في التفكـير، تذكـرت صديقتهـا قـدس، وجميـع السـنوات التـي قضتاهـا معـا في ذلـك الديـر، كيـف كانتـا تسرقـان الحلـوى والشـوكولاتة مـن المطبـخ، كيـف كانتـا تشـكلان عصابـة صغـيرة تنشـط في المهـمات المخالفـة لقوانـين الديـر، كيـف كانتـا تحميـان بعضهـما البعـض وتتشـاجران مـع أيـة فتـاة تمـس إحداهـن بسـوء، لقـد كانـت قـدس بمثابـة أختهـا التـي لم تلدهـا أمهـا ومـن المسـتحيل بالنسـبة لهـا أن تخونهـا وهـي التـي اعتـادت أن تكـون سـندها طيلـة سـتة عـشر عامـا، تذكـرت حبيبهـا كزافيـه، وتلـك الـشرارة التـي أحسـت بهـا تنتقـل مـن رأسـها إلى أخمـص قدميهـا يـوم رأتـه مـارا أمـام السـور المحيـط بالديـر، تلـك الابتسـامة، تلـك المشـية الواثقـة، وتلـك العضـلات المفتولـة، تذكـرت ملامحـه الرجوليـة، وشـجاعته في التقـدم إليهـا، تذكـرت رسـائلهم

الالكترونية، وكيف وجدت نفسها تجازف من أجل أن تتلقى كلمات منه، وتذكرت كيف اقتحم الدير وجازف من أجلها كي يأخذها من هناك، أحست بالذنب لأنها كانت السبب فيما هو فيه الآن، ذهبت بتفكيرها إلى المستقبل، ووجدت أنها لو قضت عاما آخر هنا بلا فائدة فستجن حتما، صرخت قائلة: «لماذا يا ربي! ما ذنبي وأنا فتاة صغيرة ضعيفة ألاقي هذا الحجم من الصعوبات والشقاء! ما ذنبي أن أبي مات في حادث سيارة وأمي ماتت حين ولدتني وليس لدي أقارب يعتنون بي فتم رميي في دير مع بقية الأيتام؟ ما ذنبي إن وجدت صديقتي الشجاعة اللازمة للهروب من هذا السجن بينما لم أفعل! أنا مظلومة يا ربي، والشيء الوحيد الذي أذنبت فيه هو أنني دفعت بحبيبي إلى السجن بمحض إرادتي! لكنني صغيرة يا ربي! لما تركتني أفعل ذلك! لما لم ترشدني إلى طريق الصواب! أنا أحتاجك يا ربي! ساعدني أرجوك!»

قضت مونيكا ليلتها في البكاء، وفي الصباح استدعتها ميري ووقع بينهما الحوار التالي:

ـ «جفون عينيك شديدة السواد، لا بد أنك لم تنالي قسطا جيدا من النوم».

ـ «أجل، لم أستطع أن أغمض عيني، أنت تعلمين ماذا حدث البارحة».

ـ «أجل ولذلك استدعيتك، أخبريني بمكان قدس واذهبي

لتنـالي قسـطا مـن الراحـة».

ـ «حسـنا أختـاه سـأخبرك بمكانهـا شرط أن تعدينـي أنـك لـن تعاقبينـي بعـد أن أخـبرك».

ـ «بالطبـع صغـيرتي، وسـأكون راضيـة عنـك تمـام الـرضى وسـأنسى مـا حـدث ليلـة البارحـة وأقـدم لـك امتيـازات كثـيرة».

ـ « حسـنا سـأخبرك إذا، في الليلـة التـي هربـت فيهـا قـدس قامـت بالقفـز مـن النافـذة مسـتخدمة الحبـل الـذي أعطيتـه لهـا وفي الحقيقـة هـي مـن صنعتـه بربـط مناديلهـا ببعضهـا البعـض، وقـد قامـت بربـط طـرف الحبـل في النافـذة ورمـي الطـرف الآخـر خارجـا ثـم نزلـت وخرجـت بعدهـا مـن الديـر واتجهـت مباشرة إلى ألفونسـو، حبيبـك القديـم الـذي قدمـت لـه جسـدك وأنـت راهبـة، وحملـت منـه ثـم قمـت بإجهـاض الطفـل، أتظنـين أننـا لا نعـرف تاريخـك الأسـود أيتهـا السـاقطة؟!»

ـ «ما هذا الذي تقولينه يا فتاة!»

ـ «أنـا أقـول الحقيقـة أيتهـا المنافقـة! أنـت تربيننـا عـلى مـكارم الأخـلاق التـي تفقدينهـا! فاقـد الـشيء لا يعطيـه يـا أختـاه! أنـا عـلى علـم بعلاقاتـك غـير الشرعيـة واحـزري مـاذا؟ مـا أكثرهـا! أظـن أنـك سـتصبحين مـادة دسـمة للفتيـات إن أنـا أخبرتهـن كل شيء، مـا رأيـك أيتهـا الراهبـة العفيفـة؟»

تسـمرت مـيري في مكانهـا، فبينـما كانـت مهنتهـا عـلى المحـك، الآن صـارت سـمعتها أيضـا كذلـك، خـارت قواهـا فتهـاوت عـلى

أريكـة المكتـب، نظـرت إلى مونيـكا وقالـت:

«إذا فهـذه هـي اللعبـة التـي سـنلعبها؟ حسـنا أهنئـك يـا صغـيرتي، لقـد فـزت عـلي، احتفظـي بتلـك المعلومـات لنفسـك، واعلمـي جيـدا أنـك تحذيـن حـذوي وتسـلكين طريقـي، أنـت تتجهـين مبـاشرة نحـو الهاويـة يـا مونيـكا، الهاويـة التـي أردت إنقـاذك منهـا لكنـك أبيـت ذلـك، حـين تسـقطين فيهـا سـتنظرين مبـاشرة إلى القعـر المظلـم وسـترحمين عـلي وسـتندمين ندمـا شـديدا عـلى عصيانـك لأوامـري، سـتدركين أننـي أردت أن أحميـك وأجنبـك الأخطـاء التـي وقعـت فيهـا، الدنيـا لا ترحـم يـا عزيـزتي، وهـي قاسـية جـدا عـلى الضعفـاء، ونحـن معـشر النسـاء ضعيفـات جـدا مهـما ادعينـا القـوة، فـما أن نخطـئ حتـى تدكنـا دكا وتسـحقنا سـحقا، نحـن نعتـبر آلهـة والآلهـة لا تخطـئ، وإن حـدث وأخطـأت الآلهـة فهـي لـن تصـير آلهـة بعـد الآن، سـتتحول إلى شـيطان عنـد خطئهـا الأول، وسـتتحولين إلى شـيطان يـا مونيـكا!»

خرجـت مونيـكا مـن المكتـب، وهـي تشـعر بالنـصر، وإحسـاس المـرأة بانتصارهـا عـلى امـرأة أخـرى يسـاوي عـشرة أضعـاف إحسـاس الرجـل بانتصـاره في حـرب مـا!

**********

دخلـت قـدس إلى شـقة «بيـدرو» الشـاب العامـل بالفنـدق، كانـت شـقته صغـيرة تتكـون مـن غرفـة واحـدة، قاعـة اسـتقبال، مطبـخ وحـمام.

ـ «البيت بيتك، يمكنك الإقامة هنا كما تشائين، ستنامين في غرفتي بينما أنام في غرفة الاستقبال، علي العودة إلى العمل الآن، سأعود إلى المنزل ليلا، إلى اللقاء».

ذهب بيدرو إلى العمل، بينما قامت قدس بالتجول في الشقة، دخلت غرفة الاستقبال فوجدت صورة كبيرة معلقة على الجدار لرجل يرتدي بذلة ميدان عسكرية وبجانبه زوجته تعانقه وهي تبتسم حاملة مسدسه في يدها، كانت الصورة قديمة ملونة بالأبيض والأسود، قالت قدس: «لابد أن تكون الصورة لجده وجدته»، انتبهت إلى أثاث الغرفة فوجدت الغبار يكسو المكان، وهذه حالة أغلب الرجال العزاب، فمنازلهم أشبه ببيت مهجور، ولا يصبح المنزل منزلا إلا بعد أن تدخله امرأة تعتني بنظافته يوميا وترتب الثياب في الدولاب وتغسل الصحون وتهتم بذلك الطفل المشاغب «زوجها!»

أحست قدس بالشفقة عليه، فقامت بتنظيف البيت، وغسل الثياب، وأعدت العشاء، دخل بيدرو على الساعة التاسعة ليلا فوجدها بانتظاره أمام الباب:

ـ «لقد تأخرت، والعشاء أصبح باردا، انتظر قليلا ريثما أعيد تسخينه».

ـ «انتظري دقيقة فقط! ماذا فعلت بالمنزل! لقد ظننت للوهلة الأولى أنني أخطأت الطابق، ولولا أنني وجدتك في الرواق لرجعت فورا أدراجي!»

ـ «أنـا لم أفعـل شـيئا يسـتحق الذكـر! مجـرد حملـة لمحاربـة أصدقائـك العناكـب!»

ـ «لم يكن عليك فعل ذلك حقا، لا تتعبي نفسك من فضلك!»

ـ «لم أفعلـه مـن أجلـك بـل فعلتـه مـن أجـلي، أنـا لا أسـتطيع العيـش إلا في بيئـة نظيفـة».

جلـس بيـدرو وقـدس إلى طاولـة العشـاء، وأخـذا يتنـاولان «البايـلا الاسـبانية» التـي أعدتهـا قـدس، وتجاذبـا أطـراف الحديـث وبيـدرو يحـس بالاندهـاش كلـما انتقـل معهـا مـن موضـوع إلى آخـر، فقـد كان يظنهـا إحـدى بائعـات الهـوى اللـواتي أتـين لاجئـات مـن دول أخـرى، فلـم يجـدن حرفـة سـوى بيـع أجسـادهن لسـتر أنفسـهن وإطعامهـا، فأشـفق عليهـا وأخذهـا إلى منزلـه معروفـا وإحسـانا منـه، لكنـه وجـد نفسـه أمـام امـرأة أرسـتقراطية مثقفـة ملمـة بكافـة المواضيـع والأحـداث التـي تـدور في العـالم، ولديهـا آراء منطقيـة في كل شيء، وجـد نفسـه أمـام مراهقـة تتكلـم أربعـة لغـات بطلاقـة، فتـاة لا بـد وأن أبويهـا قضيـا سـتة عـشر عامـا في تعليمهـا وتأديبهـا، فتـاة تعـرف آداب الطعـام وفنونـه بالشـوكة والسـكين، فتـاة تلقـت تربيـة راقيـة جعلتـه يصيـح قائـلا في منتصـف كلامهـما:

ـ «مـن أنـت بحـق الجحيـم! ومـا الـذي أوقعـك في مشـاكل مـع الشرطـة!»

أخـذت قـدس تـسرد عليـه قصـة حياتهـا، مـن اليـوم الـذي

اصطحبتها فيه أمها إلى الدير ورمتها هناك، حتى سنواتها التي قضتها في الدير، وختمت كلامها بقصة هروبها منه وأسبابه، وقالت له وهو يتابعها باهتمام: «وأنا الآن أريد الذهاب إلى الجزائر لأبحث عن أمي الحقيقية، أنا لا أستطيع أن أعيش بعلامات استفهام كثيرة في رأسي، هل فهمتني؟»

ـ «أجل لقد فهمتك يا قدس، ومن الآن فصاعدا اعتبريني صديقك وذراعك الأيمن، سأساعدك بكل ما أستطيع، لكن عليك أن تكوني سعيدة لأن أمك أخذتك إلى الدير، لأنك لو عشت معها لما كنت الفتاة المثقفة صاحبة العقل الراجح التي أراها أمامي الآن!»

خجلت قدس من كلامه وتوردت وجنتاها بينما طأطأت رأسها وأخذت تنظر إلى الأرضية بحياء، أحس بيدرو بالاضطراب أيضا فاستطرد قائلا: «الوقت متأخر سأخلد للنوم تصبحين على خير!»

أكملت قدس غسيل الأواني ثم اتجهت إلى الغرفة لتنام، كان باب غرفة الاستقبال مفتوحا، اختلست النظر لتجد بيدرو نائما على الأريكة غير المريحة دون وسادة أو غطاء، أحست بالذنب لأنها سلبته سريره وفراشه، استلقت وهي محتارة من شهامة هذا الشاب، فلو كان شخصا آخر غيره لقام باستغلالها أو اغتصابها، قالت في نفسها: «لما لم تحدثني الأخوات أنه يوجد هكذا نوع من الرجال؟»

استغرقت قدس في مثل هذه الأفكار حتى داعب النعاس جفنها، استيقظت في صبيحة الغد ونظرت إلى الساعة: «تبا! إنها العاشرة، لم أستيقظ لأعد له الفطور!»، التفتت إلى يمينها فوجدت طاولة صغيرة أمامها بها كأس من الحليب، كأس عصير، صحن مليء بالحلويات وورقة مكتوب عليها: «العشاء عليكم والفطور علينا» ابتسمت بسعادة وتناولت فطورها، ارتدت ثيابها وخرجت إلى شوارع برشلونة لتبحث عن عمل، وفي هذه المرة حالفها الحظ مساء بحانة «Baco Boca» أين أخبرها مالك الحانة أنهم كانوا يبحثون عن نادلة ، واتفقا على العمل بشرط أن تبدأ فورا، قبلت قدس لأنه لم يكن لديها لا الوقت ولا الجهد كي تختار أو تشترط، ارتدت بزة النادلات المتمثلة في قميص بني بربطة عنق بنية، وتنورة قصيرة بنفس اللون، وحذاء ذو كعب عال، أحست قدس بالفخر فهي الآن مسؤولة، ويمكنها الاعتماد على نفسها.

أكملت نوبتها على الساعة الثانية صباحا، ذهبت إلى غرفتها التي أعطاها إياها مالك الحانة، هي عبارة عن غرفة مشتركة بينها وبين نادلة أخرى، كانت متعبة جدا فأغمضت عينيها لتنام لكنها سمعت طرقا على الباب، كانت تظن أن زميلتها في الغرفة قد أتت، قامت بفتح باب الغرفة فوجدت نادلة أخرى أخبرتها أن هنالك من يسأل عنها في الأسفل، سألت مذعورة: «الشرطة!» أجابتها: «لا أعرف، لكنه لا يبدو شرطيا».

نزلت قدس لتجد نفسها أمام بيدرو، صرخ قائلا حينما رآها:

ـ «قدس! ها أنت ذي! لما لم تخبريني أنك هنا! لقد قضيت الليلة

كلها وأنا أبحث من مطعم لآخر ومن حانة لأخرى! كنت تستطيعين على الأقل إخباري أنك هنا!»

ـ «أنا آسفة، لكنني لم أظن أنه يتوجب علي إخبارك، فنحن في نهاية الأمر لسنا سوى....».

ـ «صديقين؟! وهل تستخفين بالصداقة! ألا تعلمين أن الأصدقاء يقلقون على بعضهم البعض، ويخبرون بعضهم عن أماكن تواجدهم؟»

ـ «أنت محق أنا آسفة، أنا فقط لم أظن أننا أصدقاء».

ـ «بل نحن كذلك! أنا سعيد لأنك وجدت عملا أخيرا، لكنني أريد فقط أن أخبرك أنك تستطيعين العمل هنا والمبيت عندي، العناكب تنوي الهجوم علي من جديد!»

ـ «شكرا لعرضك السخي لكنني لا أريد ذلك، أنا أبحث عن الاستقلالية يا بيدرو، وهذا ما جعلني أهرب من الدير».

ـ «حسنا إذا، أعطني رقم هاتفك أو حسابك على الـ MSN، علينا أن نتواصل».

ـ «أنا لا أملك هاتفا الآن ولا حسابا على الهوتميل، لكن يمكنك أن تأتي إلى هنا متى أردت لرؤيتي فالحانة جيدة والخدمات هنا ممتازة، وسآتي أنا إليك في بعض الأحيان لأراك، ما رأيك؟»

ـ «حسنا اتفقنا، سررت بمعرفتك كثيرا».

رجـع بيـدرو أدراجـه بينـما صعـدت قـدس إلى غرفتهـا وهـي مندهشـة! فهـذه هـي المـرة الأولى في حياتهـا التـي يسـأل فيهـا شـاب عنهـا ويكـترث لأمرهـا، أحسـت بالسـعادة والاسـتياء، السـعادة لأن لديهـا شـخص مهتـم بهـا، والاسـتياء لأنـه ليـس لديهـا الوقـت لأي نـوع مـن العلاقـات، فهدفهـا الآن تحصيـل بعـض الأمـوال والسـفر إلى الجزائـر للبحـث عـن ماضيهـا هنـاك.

توالـت الأيـام والشـهور وقـدس منهمكـة في العمـل، ولا تـترك لنفسـها الفـراغ أبـدا، كانـت تحـب عملهـا في الأشـهر الأولى، لكنهـا بـدأت تسـأم مـن تحرشـات الزبائـن بهـا، ونظراتهـم الخبيثـة لجسـدها. كانـت معظـم المحادثـات مـع الرجـال هكـذا:

ـ «كيف يمكنني خدمتك يا سيدي؟»

ـ «أريـد شراب كوكتيـل، أريـد أن يتغلـب طعـم الليمـون عـلى طعـم الويسـكي، ولا داعـي لزيـادة السـكر».

ـ «حاضر سيدي!»

ـ «واحـضري كأسـا آخـر لـك عـلى حسـابي، فجميلـة مثلـك تسـتحق أن يعتنـى بهـا».

ـ «شـكرا لـك سـيدي، يمكننـي إحضـار كأس لي حـين أريـد ذلـك هـل هـذا كل شيء؟»

ـ «هيـا كفـاك عنـادا، جميعكـن عنيـدات في البدايـات، حسـنا سـأدخل

في صلب الموضوع: كم أدفع لك من أجل ليلة؟»

ـ «أنا نادلة يا سيدي ولست بائعة هوى، سأحضر لك كأسك الآن».

كما كان هنالك من يتجاوز حدوده أكثر، فكم من مرة قام فيها أحدهم بلمسها وانتهى الأمر بحراس الحانة يجرونه خارجا وهو يصرخ: «قررتن الآن أن تصبحن عفيفات! لو عرضت عليك أكثر لقبلت يا ساقطة!»

وما زاد من ضجرها من هذه المهنة هو زميلاتها في العمل وخاصة زميلة غرفتها «شيلا» والتي تمتنع قدس دائما عن محادثتها لغبائها وسطحيتها، قالت لها مرة: «أنت غبية جدا يا قدس! كيف تمتنعين عن السيد خوسيه! إنه المدير التنفيذي لإحدى الشركات الكبرى وهو يدفع جيدا، كما أنه ليس سيئا في الفراش! اسألي المجرب!»

ـ «أنا لست بائعة هوى يا شيلا! جسدي مقدس ولن يلمسه سوى رجل أحبه وأنوي الاستمرار معه! جسدي ليس له ثمن! لذا فأرجو أن تحتفظي بنصائحك لنفسك!»

ـ «أنت غبية جدا يا قدس، الحياة حياتك، عيشيها كما تريدين، لكن ثقي بي، ستصلين إلى عمر تدركين فيه أن الأموال أهم من الجسد، الأموال أهم من الشرف ومن كل شيء آخر لعين!»

بدأت قدس تدرك شيئا فشيئا أن العالم موحش جدا، لقد

ترحمت على السنوات التي قضتها في الدير، أين تربت هناك على الفضيلة والأخلاق، أين علموها أن الكذب حرام والشرف هو قيمة الإنسان وحفظ الأمانة واجب ومساعدة الناس فرض وفعل الخير فطرة! لقد أدركت أن ما ربتها عليه الأخوات يوجد داخل الدير فقط، أما خارجه فلا يوجد سوى الفسق وفساد الأخلاق والكذب والنميمة والخداع والدعارة والشر وعبادة الأموال! أحست كثيرا بالشفقة على الناس وكيف أنهم ينقصون من قيمتهم من أجل أوراق ملونة تدعى «أموال»، تذكرت الدير والسيدة ميري والأخوات المشرفات وزميلاتها وصديقتها مونيكا، هي لم ترها منذ أزيد من ستة أشهر، تساءلت عن حالها ثم قالت في نفسها: «هي على الأقل أفضل مني، لو أدركت بشاعة هذا العالم لأمضيت سنوات حياتي في الدير حتى يتوفاني الرب!»

قررت قدس أخيرا أن تمضي عاما آخر في تحصيل الأموال حتى تبلغ سن الثامنة عشر، ثم تتجه إلى الدير كي تسوي وضعيتها القانونية وتتحصل على جواز السفر وتذهب إلى الجزائر، لقد تمكنت بعد اجتهاد كبير أن تعرف بعض المعلومات عن ماضيها، فعائلتها تستقر في ولاية تدعى «تيسمسيلت» في مدينة تدعى «ثنية الحد»، لقد عرفت أيضا أن أمها لازالت على قيد الحياة وأن إخوتها يقطنون بفرنسا ويذهبون كل صيف إلى «البلاد» لزيارة أمهم، أبوها توفي وهي صغيرة لذلك فهي لا تتذكره جيدا، كل ما تعرفه عنه أنه كان رجلا فقيرا وبائسا ثم مات بالسل، لم تجمع أية علاقة حب بين أبيها وأمها لأنهما تزوجا زواجا تقليديا، ففي الماضي كان الزواج بالنسبة للجزائريين مفاجأة يكتشفونها

ليلة الدخلة، فالعروس هي نعجة يشتريها الأبوان لابنهما الجزار وفق رغبتهما وشروطهما، يزوجانها له، ولا يرى المسكينان بعضهما إلا في ليلة الدخلة أين عليه أن يذبحها ويعطي الخنجر لأهله مخضبا بالدماء كي يفرح الأهل بحسن اختيارهم للنعجة وبفحولة جزارهم!

هي تقاليد مضت واندثرت، كان سببها الجهل الذي حرص الاستعمار الفرنسي أن يزرعه في كل بيت جزائري، لذلك فالحب كان حراما، وممنوعا، ومن فعل الشيطان، ورغم اندثار هذه التقاليد السخيفة والأفكار المتخلفة إلا أن تبعاتها وآثارها الجانبية لازالت حاضرة في مجتمعنا، فكلمة «حب» مثلا هي كلمة لازالت ممنوعة في العائلات الجزائرية ومحرمة أشد التحريم، فمن المستحيل أن يقول الشاب لأبيه أنه يحب فتاة أو أن تقول فتاة أنها تحب شابا، وإن حدث وقال أحدهما أن فلانا يحب فلانة، لنطق الجميع بصوت واحد: «لقد سحرته، هذا سحور، خذوه إلى الراقي!»

يذهب بعدها الشاب أو الشابة إلى أحد الشيوخ الذين يتاجرون بكتاب الله، يتلو عليهما المحتال آيات من القرآن الكريم ثم يقول له الجملة الأسطورية: «أنت مسحور، بداخلك جني أيضا، اشرب هذا الماء المرقي وأعطني الأموال!».

يحرص الأهل على ابنهما فيزوجانه بأخرى خاف عليها أهلها أيضا من سحر رجل آخر فزوجاها لهذا، وتنتهي القصة المأساوية بشابين تخليا عن حبهما وتزوجا زواجا هدفه إنجاب أطفال بائسين آخرين يضيفانهم إلى بؤس حياتهما الزوجية!

قضت قدس أيامها في العمل والدراسة، كانت تشتري الكتب الدراسية وتقرأ منها كلما أوت إلى غرفتها، وفي إحدى الأيام، أحضر لها مالك الحانة هدية قائلا: «لقد أرسلها لك أحدهم، لابد أنك جعلته يغرم بك بشدة، انفتحي يا ابنتي على العالم واتركي لقلبك الفرصة كي يحِب ويحَب، فالحياة قصيرة، وعلينا أن نبحث عن السعادة في كل جزء من أجزائها حتى نهاية الرحلة!».

أخذت الفتاة الهدية، وهي تحس بذلك الشعور الغريب، شعور شخص يتلقى لأول مرة في حياته هدية، ومن مجهول أيضا! قامت بفتحها فوجدت هاتفا ورسالة مكتوب عليها: «أريد أن أتحدث معك، وهذه الهدية هي من أجلي وليست من أجلك، اقبليها مني أرجوك، سأتصل بك الليلة! ـ بيدرو ـ ».

ابتسمت قدس بسعادة، فرغم أنها ليست من ذلك النوع من الفتيات اللواتي يبحثن عن الهدايا الفاخرة، إلا أنها أحست بالارتياح لأن بيدرو يبدو جادا بشأن علاقتهما، قامت بوضع الشريحة في الهاتف فوجدت رسالة نصية: «ها هي ذي قدسي! أنا سعيد لأنك قبلت هديتي، اشتقت إليك كثيرا أيتها الهاربة!»

ضحكت بسعادة، أكملت عملها وصعدت إلى غرفتها، اتصل بها بيدرو:

ـ «مساء الخير آنسة قدس».

ـ «مساء النور سيد بيدرو».

ـ «أريد كأس فودكا من فضلك».

ـ « آسفة ليس لدينا مشروبات كحولية، لا نملك سوى عصير البرتقال».

ـ « هل اتصلت بحانة أم بكشك ديزني! أريد أن أثمل الليلة!»

ـ «الكحول مضر بالصحة يا سيدي، ماذا لو كنت أنا من أسقيك كأس العصير؟ هل ستفكر مرة أخرى في الأمر».

ـ «أريد برميلا من العصير! أريد أن أعيش في ديزني! تبا للمشروبات الكحولية إنها مضرة بالصحة!»

ـ «هاهاها! لا بد أن السيد بيدرو اشتاق إلي قليلا؟»

ـ «قليلا! آه يا مشاغبة! أنا لم أتوقف عن التفكير فيك، لقد اتفقنا أن نلتقي لكنك تتحججين في كل مرة، أنا أريد أن أكون حبيبك يا قدس، أنا حقا أهتم لأمرك، ولست من ذلك النوع من الرجال الذي يوقع بالفتيات من أجل متعته الشخصية، أنا معجب بك كثيرا وأرغب أن أساعدك في كل أمر».

ـ «حسنا اتفقنا، لكن هنالك شرط واحد».

ـ «أنا طوع أمرك!»

ـ «لا تخذلني!»

ـ «بالطبع لن أفعل! سأكون سندك يا روحي، سأكون معك في السراء والضراء، سأعينك وأقف دائما إلى جانبك، سأكون أباك وأخاك وصديقك الذي تتكلين عليه، سأكون مستودع أسرارك

والحائط الذي تستندين إليه والرجل الذي ينصحك ويقوّم الطريق إن انعرجت بك يوما ما السبل!»

أمضت قدس بقية الليل تتجاذب أطراف الحديث مع بيدرو، لقد توطدت يومها أواصر الصداقة بينهما، وأحست أخيرا بالارتياح معه، فقد رأت فيه الرجولة والشهامة والمروءة التي لم تجدها في رجال آخرين، ووجد فيها العفة والتربية والأخلاق والفضيلة التي لم يجدها في فتيات أخريات، نام الشابان والابتسامة تعلو محياهما، وما أحوج الشباب لنوم هنيء سعيد ينسيهم متاعب هذا العالم وقسوته.

في الجهة الأخرى وبالتحديد في دير مونتسيرات، كانت مونيكا تبكي بحرقة وتندب حظها التعيس، فقد مضت أشهر على غياب حبيبها وهي لا تدر إلى حد الآن كيف انتهى به الأمر، تم عرضها لجلسات عديدة عند الطبيبة النفسية التي حاولت بكل جهدها أن تقنعها أن ما حدث قد حدث ولا يمكنها تغيير شيء، وأن الخطأ ليس خطأها بل خطأ الشاب المتهور، لقد أخفوا عنها طبعا أنه قد تم إحالته على المحكمة، وألقيت على كاهله تهم ثقيلة انتهت بالحكم عليه بعشر سنوات حبسا نافذا، وبعد استئنافه للحكم تم تقليص عدد السنوات إلى خمس سنوات نافذة، وهو الآن يقبع في السجن مع بقية المجرمين، لقد أخفوا عنها ذلك وأوهموها أنه قد خرج بحكم براءة ومنع عليه الاقتراب من الدير مرة أخرى، فقالت لطبيبتها: «أنظري إلي جيدا أيتها الطبيبة، هل أبدو لك غبية؟ أنا أنظر إلى نفسي في المرآة كل يوم ولا أرى الغباء في ملامح وجهي! أن أعرف كزافيه جيدا، وهو ليس من النوع الذي لا

يذهب إلى مكان حين يقال له لا تذهب إليه، لو كان بخير لاتصل بي، لوجد ألف طريقة لفعل ذلك، لما تعاملينني باستغباء أرجوك! هل أبدو غبية إلى هاته الدرجة؟ هل أبدو لك غبية كفتاة نالت شهادة البكالوريا بتقدير متوسط لم يسمح لها بمزاولة مهنة الطب التي كانت تحلم بها فاتجهت إلى علم النفس كي يقال عنها طبيبة وتحشر في زمرة الأطباء؟ أنا لست كذلك يا دكتورة، وسأخرج يوما ما من هذا السجن اللعين وأذهب مباشرة للبحث عن حبيب قلبي! كيف تخبرينني أنه لا ذنب لي فيما حصل؟ هل أبدو لك من النوع الذي يقال له أن كل شيء على ما يرام فيهدأ؟ هل أبدو لك من الصنف الذي يصدق الأكاذيب ويقنع بها نفسه كي لا يشعر بالذنب؟ أنا لست كذلك إطلاقا يا دكتورة! أنا هي المذنبة، أنا من استغليت حبه لي وجعلته يقوم بما قام به! أنا من رميته في السجن! أنا تافهة تفاهة الفتاة التي تخبر حبيبها أن أحد الشباب يضايقها، وتستفزه كي يأتي ويدافع عنها، ولا يهنأ لها بال حتى تقع جريمة شرف يذهب ضحيتها حبيبها إما للسجن أو القبر! لقد ضحيت بحبيبي من أجل نفسي يا دكتورة، وهو الآن يعاني في السجن! أنا أكره نفسي كثيرا، وأكرهك أنت أيضا لأنك تافهة جدا! لما لا تنتحرين يا دكتورة؟ الموت أهون لك من هذه الحياة البائسة التي تعيشينها، أرجوك كفي عن محاولة إقناعي أن السماء صافية والعصافير تزقزق لأن السماء ملبدة بالغيوم والعصافير تجمدت من البرد!»

كانت الطبيبة تنظر إلى مونيكا بشفقة، وترثي لحال هذه الزهرة التي ذبلت منذ تلك الحادثة، كانت جفونها سوداء، منتفخة ومجروحة من كثرة البكاء، أصبحت هزيلة جدا وترفض أكل أي طعام، صارت ضعيفة ومشيتها بطيئة، حتى الوقوف صار صعبا

بالنسبة لها، كان ملخص تقرير الطبيبة: «لقد فشلت كل أنواع العلاج النفسي والكيميائي وهذا بسبب رفض المريضة تلقي العلاج، ينصح بتلبية رغباتها وإلا تدهورت حالتها أكثر وقد تصل إلى حد الوفاة».

قرأت ميري تقرير الطبيبة، فزادت حيرتها وتبخرت آمالها في علاج الفتاة، وبما أن ترتيب لقاء للحبيبين مستحيل، فقد توصلت ميري إلى حل وسطي، استدعت مونيكا إلى مكتبها وبادرتها الحديث:

ـ «اجلسي يا ابنتي، ودعينا نتحدث حديث نساء، لقد كنت يوما ما في سنك، وأنا أفهم جيدا معنى أن يفقد الحبيب حبيبه الأول، أنا أحس بك، وأحس بفظاعة ما حصل، كما أنني أعرف الشعور بالندم لأنني ندمت على كل شيء قمت به منذ مراهقتي، لقد قمت بأمور سيئة أكثر منك يا مونيكا وأنا الآن أتجرع سم الندم كل ثانية، لقد أخبرتني قبلا أنك تعرفين قصتي مع ألفونسو لكنك لا تعرفين تكملة الحكاية، حين كشف أمرنا خفت أن يتم طردي من الدير فادعيت أنه هو من اغتصبني، رغم أنني من أغويته لفعل الخطيئة، لقد وقفت يا مونيكا أمام القاضي وبكيت أمامه وحكيت له تفاصيل اغتصابي من مخيلتي، وزدت فوق هذا أنني أحضرت أختين شهدتا معي زورا أنني تعرضت للاغتصاب، أتعلمين أين هو حبيبي الآن يا صغيرتي؟ إنه يقبع في السجن لحد الآن، لأنني أرسلته حرفيا إلى هناك، لذلك توقفي عن الهراء أن لا أحد يحس بك وأنك الوحيدة التي فعلت ما فعلته لأن أمامك امرأة فعلت كل شيء! أنا أحس بك يا مونيكا، وقد وجدت حلا

يرضيك، حسنا، كلتانا تعلم أن كزافيه يقبع في السجن الآن، وأحيطك علما أنه تلقى حكما بخمس سنوات سجنا نافذا، وبما أن إدارة الدير تمنعني من ترتيب لقاء لك معه، لذلك قررت أن أسمح لكما أن تتراسلا بشرط أن تمر الرسائل علي لكي يطمئن قلبي فقط، وأريدك أن تتستري على الأمر لأن هذا الشيء ممنوع، فأنا أقوم بهذا الإجراء كامرأة تساعد امرأة أخرى، وليس كرئيسة دير مع طالبة».

اختلطت المشاعر داخل صدر مونيكا، ولم تجد أتحزن لأن حبيبها يقبع داخل السجن أم تفرح لأنها ستتواصل معه أخيرا، أجهشت بالبكاء بطريقة غريبة، كانت دموعها مختلطة بدموع القهر والسعادة، دموع الحزن والفرح، دموع الحطام والازدهار!

شكرت ميري كثيرا واتجهت مباشرة إلى غرفتها، جلست في مكتبها وأخذت ورقة وقلما وبدأت في كتابة الرسالة الأولى لحبيبها وهي تقول في قرارة نفسها: «آه يا حبيب الروح ماذا أقول لك وماذا لا أقول، أنا أحبك يا نصفي الثاني أنا أعشقك! لقد اشتقت إليك كثيرا! سأكتب لك كل شيء يا روحي، سأكتب لك كل شيء!»

# الفصل الثاني:

## الجزائر العميقة

رسـت السـفينة بمينـاء الجزائـر العاصمـة، كان رجال الجمارك يفتشـون كل شيء بينـما المسـافرون منهمكـون بنقـل حقائبهـم إلى أرض المينـاء، ومـا أكثرهـا! فأنـت تحسـهم للوهلـة الأولى أنهـم تجـار وليسـوا مجـرد مسـافرين، فأغلبهـم مغتربـون يفضلـون قضـاء عطلـة مجانيـة في بلادهـم الأم فيلجـأون لإحضـار ألبسـة صيفيـة وشـتوية، أحذيـة ومعـدات إلكترونيـة وغيرهـا مـن البضائـع الأوروبيـة كي يبيعوهـا لأقاربهـم وجيرانهـم ويسـتفيدوا مـن تلـك الأمـوال في قضـاء عطلتهـم، وحـين عودتهـم يقومـون بنفـس الأمـر ولكـن هـذه المـرة بـشراء ملابـس تقليديـة وعلـب التمـر وقـارورات اللـبن وغيرهـا مـن البضائـع التـي يعلمـون أنهـم سـيبيعونها بسـعر غـال في إسـبانيا.

نزلـت قـدس وحبيبهـا بيـدرو في المينـاء، وهـما ينظـران إلى أولئـك النـاس العجولـين، لقـد أحسـت قـدس بالإنتـماء منـذ خطـت خطوتهـا الأولى خـارج السـفينة، لكـن بيـدرو كان لـه رأي آخـر، تكلـم قائـلا: «لا أظننـا سـنتأقلم كثـيرا هنـا يـا حبيبتـي، لا بـد أنـه سـيكون شـهرا طويـلا»، لم تعـره قـدس أي انتبـاه، أكمـلا الإجـراءات الروتينيـة للوثائـق، ثـم سـألت قـدس عـن سـيارة أجـرة باللغـة الفرنسـية لأنهـا تعـد اللغـة الثانيـة في الجزائـر بعـد اللغـة العربيـة، ركبـا السـيارة وانطلقـا إلى فنـدق الشـيراطون بنـادي الصنوبـر.

ـ «هـل هـذه هـي المـرة الأولى لكـما في الجزائـر العاصمـة؟» سـألهما موظـف الاسـتقبال بالفنـدق.

ـ «أجل سيدي، إنها المرة الأولى» أجابته قدس.

ـ «لدينا هنا برنامج سياحي جيد للتعريف بالمدينة، إن أردتما الحجز فيه طبعا».

ـ «شكرا لك، نحن هنا للعمل لا السياحة، نريد غرفة لشخصين من فضلك».

ـ «الدفتر العائلي من فضلك».

ـ «وما حاجة الدفتر العائلي؟ نحن لسنا متزوجين».

ـ «آسف يا سيدتي، إنها قوانين الفنادق هنا في الجزائر، لا يسمح بتقديم غرفة لزوجين إلا إن كانا يحوزان على دفتر عائلي، في هذه الحالة سأعطيكما غرفتين منفردتين، أربعون ألف دينار لليلة الواحدة».

دفعت قدس للموظف وأخذا مفتاحي غرفتيهما وفي طريقهما انفجر بيدرو قائلا:

ـ «أربعون ألف دينار لليلة! فندق راقٍ ببرشلونة بربع هذا المبلغ! هذه سرقة! وما هذه التفاهة حول الدفتر العائلي! أنا حقا لا أستطيع المكوث هنا طويلا!»

ـ «لا عليك يا حبيبي، لكل بلاد تقاليدها ومميزاتها، ولابد أن يكون هنالك اختلاف بين بلد وآخر خاصة إن كان يخالفه في المعتقدات، نحن في بلد مسلم يا بيدرو، والإسلام يحرم اختلاء

الرجـل بالمـرأة».

هكـذا كان الحـال في الجزائـر، كل شيء ممنـوع، خاصـة الحـب، فحتـى محاولـة إظهـاره هنـاك يعرضـك إلى مضايقـات مـن طـرف الشـعب، لقـد اسـتطلعت قـدس عـن كل شيء قبـل أن تقـوم بهـذه الخطـوة، لذلـك فقـد حرصـت عـلى أن تلبـس لباسـا «محترمـا» كـما يناديـه الجزائريـون، وهـو اللبـاس الـذي يشـترط فيـه أن يغطـي تفاصيـل المـرأة وانحنـاءات جسـدها.

القبلـة ممنوعـة، الحضـن ممنـوع، الغـزل ممنـوع، عليـك أن تمـشي مـع زوجتـك في الطريـق كـما تمـشي مـع صديـق لـك! هـذه هـي قوانـين المجتمـع والتـي لا أظنهـا قوانـين الإسـلام، فإمـا أن تمـشي وفـق تلـك القوانـين طوعـا، أو تمـشي وفقهـا مرغـما!

درسـت قـدس حتـى عـن شـهر رمضـان الكريـم، ذلـك الشـهر الـذي يمتنـع فيـه المسـلمون عـن الأكل والـشرب مـن الفجـر حتـى غـروب الشـمس، هـذه الشـعيرة الدينيـة تبـدو عاديـة، وقـد أثبـت العلـماء أيضـا أثرهـا الجيـد عـلى صحـة الإنسـان وفائدتهـا في تخليـص جسـمه مـن السـموم، الـشيء الوحيـد الغـير العـادي في هـذا الشـهر هـو أنـه إن قـرر أحدهـم أن يـأكل أو يـشرب في هـذا الشـهر، فهـذا يعتـبر اسـتفزازا للسـكان هنـاك، وقـد يبرحونـه ضربـا إن قـام بذلـك علنـا، وقـد يصـل الأمـر إلى أن يلقـى عليـه القبـض ويرمـى في السـجن بتهمـة «انتهـاك حرمـة رمضـان!»

هنالـك أيضـا تمييـز واضـح بـين الرجـل والمـرأة، أن تكـوني امـرأة في الجزائـر فهنـاك قوانـين تحكمـك أيضـا، ومـن أغـرب قواعـد

التمييز هناك هي ظاهرة «التدخين»، فالرجال مسموح لهم بتدخين كافة أنواع التبغ لكن المرأة لا تجرأ على فعل ذلك، ويا ويل من جربت أن تدخن علنا!

قام قدس بكل هذه الاستطلاعات، جعلتها تندمج بسهولة في المجتمع الجزائري، عكس بيدرو الذي وجد صعوبة في هضم كل شيء، لم يفهم طبيعة هذا الشعب وكيفية تعامله مع بعضه ومع الناس، ترجى قدس أن يعودا أعقابهما فأخبرته أنها من المستحيل أن تستسلم عن أمر كانت تنتظره كل حياتها.

كانت الخدمات في فندق الشيراطون ممتازة، لكنها لم تستحق كل ذلك المبلغ في نظر بيدرو، ذهبا في اليوم التالي إلى محطة «الخروبة» وركبا إحدى سيارات الأجرة الجماعية باتجاه مدينة «ثنية الحد».

انطلقت السيارة عبر الطريق السيار شرق ـ غرب مارة بولاية «البليدة» ثم «عين الدفلى» ثم انعطفت نحو «خميس مليانة» وتوقفت في محطة سيارات «ثنية الحد»، كانت المدينة صغيرة جدا، نظرت إليها قدس وهي تترجل من السيارة وقالت: «مرحبا يا موطني!»

قامت بحجز غرفتين في الفندق، وتركت بيدرو هناك وخرجت لتسأل المواطنين عن العائلة «يوسفي»، كان المواطنون هناك ودودين جدا خاصة إن تعلق الأمر بفتاة جميلة تحتاج المساعدة، وقد يتطور الأمر إلى جرائم شنيعة فيما بينهم في

سـبيل التسـابق إلى خدمتهـا!

أخبرهـا أحدهـم أنـه يعـرف امـرأة بهـذا الاسـم تسـكن في «القريـة»، أخـذت سـيارة أجـرة إلى هنـاك، وذهبـت إلى البـاب الـذي أرشـدوها إليـه، كان بيتـا قديمـا مصنوعـا مـن الحجـارة والطـين، دقـت البـاب فتكلمـت المـرأة مـن خلـف البـاب «مـن هنـاك؟» أحسـت قـدس بقلبهـا يقفـز مـن صدرهـا وهـي تسـمع هـذا الصـوت الـذي لم يتغـير منـذ سـنوات، تكلمـت بصـوت مختنـق:

«Buenas tardes mi madre ,soy Kods!»

لحظـات صمـت، ثـم فتـح البـاب، خرجـت المـرأة وثغرهـا مفتـوح وهـي تشـاهد ابنتهـا التـي رمتهـا قبـل أكـثر مـن عـشر سـنوات في إسـبانيا واقفـة أمامهـا وقـد صـارت امـرأة مكتملـة الأنوثـة! صرخـت قائلـة: «ابنتـي! كيـف أتيـت إلى هنـا! كيـف عرفـتِ! هـل أنـا أهـذي! قـدس! هـل هاتـه حقـا أنـت!»

ارتمـت قـدس في حضـن أمهـا، وشرعتـا في البـكاء حينـا مـن الزمـن، دخلتـا إلى المنـزل وجلسـتا في قاعـة الطعـام، أخـذت قـدس تحـكي لأمهـا كل مـا مـرت بـه، سـنواتها في الديـر، هروبهـا، عملهـا، ارتباطهـا ببيـدرو، حتـى وصولهـا إلى الجزائـر، كل هـذا والأم مسـتغرقة في سـماع ابنتهـا وهـي بالـكاد تصـدق ذلـك، وحـين انتهـت مـن الـكلام قالـت مايـا:

ـ «أنـا سـعيدة جـدا لأنـك أتيـت يـا قـدس، لا أصـدق أننـي

تمكنت من النجاة كل هذه السنوات من دونك! الحمد لله أنني لم أمت قبل أن أراك مجددا والأهم....».

ـ «أمي أريد أن أسألك».

ـ «تفضلي يا ابنتي».

ـ «لما لم تعتنِي بي كما تعتني النساء بأطفالهن؟ لما رميتني في ميتم ولم تسألي عني؟ أجيبيني أرجوك!».

ـ «لقد أخطأت يا قدس! سامحيني!»

ـ «أنا لم آتي يا أمي إليك لأنني اشتقت إليك، فأنا لم أشتق إليك إطلاقا، أنا بالكاد أتذكرك، لقد أحضرتني إلى هذه الحياة القاسية ورميتني، حرمتني من كل حقوقي، فلا تحرميني أرجوك من حقي الأخير وهو أن أعرف الحقيقة، لما رميتني؟ لما لم تتركيني معك في الجزائر أو تتركيني لدى إخوتي في فرنسا؟»

نظرت مايا إلى قدس مليا ثم قالت:

«أنت محقة يا ابنتي، من حقك أن أخبرك بكل شيء، وسأوضح لك هذا الآن، أتذكرين حين أخبرتك أن أباك قد مات بالسل وأن لديك إخوة في فرنسا؟ لقد كذبت عليك يا ابنتي، حين توفي زوجي بالسل، اضطررت إلى السفر إلى مدينة برشلونة كي أسوي وضعية معاشه التقاعدي لأنني احتجت كثيرا إلى الأموال لأعيل نفسي وأولادي، وقد تعرفت هنالك على رجل ساعدني في إتمام الوثائق ووقف إلى جانبي، وبما أنني كنت أرملة ضعيفة لا

حـول ولهـا قـوة، فقـد اسـتغل ضعفـي....»

ـ «إذا فأنا ابنتك غير الشرعية التي تخجلين بها؟»

ـ «الأمـر ليـس كذلـك يـا قـدس! لقـد تركنـي أبـوك بعـد أن حملـت بـك واختفـى، والقوانـين هنـاك لا تحمينـي ولا تحميـك! لقـد كنـت خائفة، ولم يكـن لي المـال الـكافي كي أهتـم بتربيتـك، كـما أننـي امـرأة جزائريـة يـا ابنتـي، والأمـور هنـا تختلـف عـن هنـاك! أتعلمـين مـا معنـى أن تذهـب المـرأة إلى بلـد آخـر وترجـع بابنـة غـير شرعيـة؟ سـينبذها المجتمـع يـا ابنتـي، وقـد تتعـرض كلتانـا للقتـل! لقـد أخفيتـك في الجزائـر لسـنوات عديـدة، لكننـي لم أسـتطع أن أخفيـك مـدى الحيـاة، لذلـك رجعـت مجـددا إلى إسـبانيا وتركتـك هنـاك، إغفـري لي أرجـوك!».

ـ «لا تناديـني ابنتـي أرجـوك! فهـذه الكلمـة مقدسـة ولا تليـق بـك أبـدا! الـوداع يـا مايـا!»

ـ «ابنتي أرجوك سامحيني، لا تذهبي!»

ـ «لـن أسـامحك أبـدا أيتهـا المـرأة، وبمـا أننـي لا أسـتطيع أن آخـذ حقـي في الدنيـا، فسـآخذه منـك في الآخـرة، سـنلتقي الفـوق يـا مايـا، في السـماء! وسـأخبره أنـك ظلمتنـي وأننـي لا أغفـر لـك! لـن يهـدأ لي بـال حتـى أرى الـرب يقتـص لي منـك!»

خرجـت قـدس مـن منـزل أمهـا واتجهـت مبـاشرة إلى الفنـدق، دخلـت تبـكي فوجـدت بيـدرو في انتظارهـا في الـرواق:

ـ «ما بك يا حبيبتي؟ ماذا حدث؟ هوني عليك أرجوك!»

حكت له قدس كل ما حدث لها مع أمها فقال لها:

ـ «لا بـأس يـا حيـاتي، عـلى الأقـل أنـت تعرفـين الآن كل شيء، وقـد أجبـتِ عـلى كل الأسـئلة التـي كنـت تبحثـين عنهـا، علينـا الآن العـودة إلى برشـلونة».

ـ «مالـك ومـال برشـلونة أريـد العيـش هنـا يـا بيـدرو، هـذا هـو وطنـي، لا شيء يجمعنـي بإسـبانيا سـوى ذلـك الديـر البائـس! وتلـك الحانـة المزريـة!»

ـ «لكننـا اتفقنـا عـلى أن نـأتي هنـا لمـدة شـهر أيـن تريـن أمـك ثـم نرجـع!»

ـ «لقـد غـيرت رأيـي يـا بيـدرو! أنـا امـرأة ونحـن معـشر النسـاء لا نثبـت عـلى رأي! أنـا أحـس بجـزء منـي يريـد العيـش هنـا، لا تنـس يـا حبيبـي أننـي لا أعتنـق أيـة ديانـة إلى حـد الآن، وعـلي البحـث في دينـي الأصـلي قبـل أن أحـدد أي طريـق أسـلك»

نظر بيدرو بغضب إلى قدس وصرخ قائلا:

ـ «أتذكريـن حـين قلـتِ لأمـك لا تناديـني أمـي منـذ الآن لأن هـذه الكلمـة مقدسـة وأنـت لا تحترمـين قداسـتها؟ لا تناديـني أنـا أيضـا حبيبـي لأن كلمـة الحـب مقدسـة أيضـا وأنـت لا تقدسـين شـيئا! أنـت أنانيـة جـدا يـا قـدس! لا تحبـين سـوى نفسـك، لقـد اخترتـك لـكي نعيـش حياتنـا معـا وليـس كي نعيـش حياتـك! لقـد أعنتـك في كل شيء، سـافرت معـك لنبحـث

عـن ماضيـك وهـذا هـو جـزائي؟ أتعلمـين مـاذا يـا قـدس؟ لقـد صـبرت عليـك كثـيرا، ظننـت أنـك حينـما تعرفـين ماضيـك فسـتعودين إلى رشـدك، لكنـك تتماديـن في كل مـرة، لقـد سـئمت مـن كـوني الطـرف الوحيـد المضحـي في العلاقـة! سـئمت مـن كـوني الطـرف الـذي يسـعى إلى إرضائـك حـين تغضبـين ولا تسـعين إلى إرضائـه حـين يغضـب، سـئمت مـن كـوني اللعبـة التـي تلعبينهـا حينـما تكونـين سـعيدة وترمينهـا في لحظـات حزنـك، أنـا أحـس أننـي أفـرض نفـسي عليـك في علاقـة لا تريدينهـا وهـذا يمـس كرامتـي كثـيرا! قـدس! أنـا أقطـع علاقتـي رسـميا بـك الآن، سـأرجع لتـوي إلى برشـلونة، إن كنـتِ تريدينني فأنـت تعرفـين جيـدا العنـوان».

وقفـت قـدس وقفـة كبريـاء، أعلـت حاجبيهـا ونظـرت في عينيـه مبـاشرة بنظـرة ثاقبـة وسـألته بهـدوء: «هـل أسـاعدك في توضيـب ثيابـك؟»

وجـدت قـدس نفسـها بعـد بضـع سـاعات وحدهـا في بلـد غريـب، ورغـم ذلـك فهـي لم تشـعر بـشيء، ومـا أدهشـها حقـا هـي أنهـا لم تكـترث عنـد إنهـاء علاقتهـا ببيـدرو التـي دامـت لسـنتين، وأخـذت تسـأل نفسـها: «هـل كنـت أحبـه حقـا؟ أم أننـي فقـدت الإحسـاس؟»

كانـت خطتهـا التاليـة هـي إتمـام الدراسـة، قامـت بالتسـجيل في الجامعـة تخصـص لغـة إسـبانية وأخـذت غرفـة في الإقامـة الجامعيـة للبنـات، كانـت زميلتهـا في الغرفـة فتـاة ملتزمـة تدعـى «أنفـال» وقـد وجـدت فيهـا قـدس المنبـع الـذي تأخـذ منـه معلومـات حـول دينهـا، أمضيـا أسـبوعهما الأول في التعـارف، ثـم انتقلـت

علاقتها إلى «أنت تسأل وأنا أجيب!»، حيث كانت قدس تمطرها بالأسئلة وأنفال لا تمل من الإجابة:

ـ «لما تغطين كامل جسمك؟»

ـ «الله تعالى أمرنا بذلك، فجسد المرأة مقدس ولا يجوز أن يكون عرضة لأنظار جميع الناس، نحن لا نبدي أجسادنا إلا لأزواجنا، أولئك الرجال الذين نبقى عفيفات من أجلهم، ونعيش وفيات معهم، كي نبني أسرة سليمة».

ـ «لما تصلين خمس مرات في اليوم؟»

ـ «الصلاة فرض من الله تعالى على عباده، وهي التي تجعلنا نتذكره كلما نسيناه، كما أنها تبعدنا عن الفحشاء والمنكر وتجعلنا في قمة النظافة والطهارة الجسمانية والروحية، فنحن نتوضأ خمس مرات في اليوم قبل أن نؤدي الصلوات».

ـ «ولما لا تعترفون أن الله له ولد؟»

ـ «لأن الله أجلّ من أن يكون له ولد، فمن خلقنا وخلق هذا الكون لا بد وأنه قوة لا تشبه صفاتها أي مخلوق كان، كما أننا نتبع القرآن الكريم وهو الكتاب الوحيد في الأديان الذي لم يحرف، وهو دستور نتبعه في تنظيم حياتنا، وقد ذكر الله فيه أنه لم يلد ولم يولد وليس هنالك أي شخص يساويه».

استمرت قدس في السؤال عن كل شيء، وأنفال تحاول بكل ما

أوتيت من علم أن تجيبها عن كافة أسئلتها وحين تعجز عن ذلك كانت تلجأ إلى كتب العلماء والفقهاء للبحث عن الجواب، أخبرتها عن حقيقة اسمها، «القدس» وعن القضية الفلسطينية، أحست قدس بالانجذاب إلى هذا الدين خاصة وأن أنفال لم تستعمل معها سياسة «حلال وحرام»، بل أغرتها بأخلاقها الحميدة والتي اكتشفت قدس فيما بعد أنها مستمدة من أخلاق الإسلام، اكتشفت كذلك أن الأديان السماوية متشابهة كثيرا، فما علمتها إياه الأخوات في الدير وجدته أيضا في المسجد، أين ذهبت مع أنفال مرات عديدة واحتكت بالمسلمات هناك، زاد حبها أكثر للإسلام، خاصة حين وجدته أكثر عقلانية من الديانات الأخرى في نقاط اختلافهم، وتعجبت من النظرة الغربية لهذا الدين الذي وجدته عكس ما يروج له الإعلام، حيث علمت أنه الدين الوحيد الذي يدعو إلى تحرير المرأة رغم أن الغرب يظن أنه يدعو لاستعبادها، وجدت أنه دين المحبة والتسامح لا دين العنف والتفرقة، وخرجت بخلاصة في آخر المطاف: «الإسلام هو دين الحق، وتلك الصورة التي نراها عنه لديها سببان أولهما الغرب الذي يقوم بتشويه صورة الإسلام في العالم وثانيهما المجرمون الجاهلون بتعاليم الإسلام ويسمون أنفسهم رغم ذلك بالمسلمين، وهم من يقومون بتشويه صورة الإسلام الذي هو بريء منهم!»

**********

أكمل المصلون صلاة الجمعة في مسجد «كتشاوة» بالجزائر العاصمة، وأعلن بعدها الإمام أنه هنالك فتاة أوروبية ذات أصول جزائرية تنوي الدخول في الإسلام، دخلت قدس إلى المسجد وبدأ الإمام

يلقنها الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله»، كبّر المصلون وكلهم فرح بدخول شخص جديد إلى الإسلام، وخرجت قدس أين وجدت أنفال بانتظارها: «مبروك يا أختي! الآن سأعلمك بقية أركان الإسلام!»

أمضت قدس وقتها في تعلم اللغة العربية، والتعمق في دينها الجديد ومتابعة دراستها الجامعية، كان لجمالها الباهر التأثير الشديد على شباب الجامعة الذين ما فتئوا يعاكسونها، لكنها لم تلتفت لأي شخص ما عدا «سليم»، ذلك الشاب الخجول المتأدب الذي كان يدرس علم النفس في الجامعة نفسها، كان صديقا لأنفال، وقد التقى ثلاثتهم مرات عديدة في حرم الجامعة أين كان حديثهم يتمحور حول الدروس والتعليم الجامعي بصفة عامة، توطدت العلاقة بين قدس وسليم، خاصة وأنها رأت فيه عمقا لم تره في شاب غيره، ونظرة إلى الحياة مميزة غير اعتيادية، صار الاثنان لا يفترقان إلا في ساعات الدراسة أو بعد انقضاء الفترة المسائية، وحتى في الليل كانا يتراسلان عبر الهاتف، كان الشابان متحمسين جدا للعلاقة، وصارت أفكارهما تتجه نحو المستقبل القريب.

ـ «حين نتخرج سأتقدم لخطبتك، لكنني لا أدري أي منزل أقصد، فأنت لا تمتلكين عائلة!»

ـ «لقد قالت لي أنفال أن أبواها سيقومان بتزويجي إن رغبت بذلك يوما، فأنا أختها الآن، ووالداها هما والداي».

ـ «حسنا إذا موعدنا بعد عامين! »

اتسعت عينا قدس، وكبر بؤبؤهما، وازدادت حدقتاها لمعانا،

لقد كانت سعيدة جدا لأنها سترتبط بسليم، هذا الشاب الذي أحبت فيه روحه وأحب فيها روحها، لم ينظر يوما إلى جسدها ولم تنظر يوما إلي جيبه، إنه تعانق الأرواح، الحب الأسمى الذي لا يزول، الحب المؤسس على التفاهم والتوازن الفكري بين الزوجين والتخطيط المحكم والنضوج، لا ذلك الحب المبني على حجم المفاتن الأنثوية أو ثقل الرصيد البنكي!

كانت قدس تنتظر بفارغ الصبر مرور العامين، دخلت في صبيحة الغد إلى مدرج الجامعة كعادتها لتدرس حصة في «اللسانيات»، ففوجئت بما لم يكن في الحسبان، وجدت المدرج ممتلئا عن آخره بزملائها في الجامعة، كانت هنالك الكثير من البالونات الحمراء تملأ المكان والشموع الرومانسية في كل ناحية، نظرت إلى الأرضية لتجد حزمة من الورود الحمراء مشكلة على شكل قلب، قامت أنفال بجذبها من يدها وأدخلتها داخلها ، فقفز سليم أيضا وانحنى أمام قدس واضعا ركبته على الأرض ويده في جيبه ليخرج منها علبة صغيرة حمراء قام بفتحها لتندهش الفتاة وهي ترى ذلك الخاتم البراق المرصع، سكت الجميع وعم الهدوء القاعة، لينطق سليم والتوتر واضح في صوته: «عزيزتي قدس، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟» صعقت قدس، وأحست أنها في حلم، أخذت تنظر إليه بفم مفتوح وكأنها تريد أن تسأله: «هل هذا حقيقي؟!» نظرت إلى جميع طلاب الجامعة الذين التفوا حولهما في شكل حلقة، فوجدت الجميع ينادي بصوت واحد: «قولي نعم! قولي نعم! قولي نعم!»

نظرت قدس مجددا إلى سليم وصرخت قائلة: «بالطبع أريد ذلك! نعم! نعم!»، أخذ الجميع يصيح صيحات الفرح والسعادة، هذا بغض النظر عن أولئك الفتيات اللواتي يتصنعن الابتهاج وفي داخلهن حسد كبير، فالفتاة الجزائرية لا تحلم أن يتقدم حبيبها إليها بهذه الطريقة أمام جميع الناس، وحدوث أمر كهذا لا تناله سوى المحظوظات اللواتي يمكن عدهن على رؤوس الأصابع!

قام سليم بإلباسها الخاتم ثم نهض وهم باحتضانها لكنها سبقته في ذلك وارتمت في أحضانه، همست في أذنه قائلة: «لكنك قلت لي البارحة أنك ستتقدم لي بعد عامين؟» أجابها قائلا: «وهل أستطيع يا مجنونة أن أنتظر عامين!»

ما أجمل الحب! خاصة حينما يكون مع شخص يجعلنا نحس بالأمان معه، يقوم بأمور تجعلنا نتأكد أنه لن يتخلى عنا مهما حصل، يجعلنا نحس بقيمتنا، وأننا مرغوبون لديه دائما، شخص لا يجعلنا نخاف من حبه، لأنه جعلنا ندرك أننا لن نخسره، وحتى لو أننا تصرفنا بغباء يوما ما فهو سيسامحنا لأنه يريدنا وحياته لا تكتمل إلا بنا، شخص يجعلنا نتأكد أننا مجرد أنصاف تمشي على وجه الأرض، وأنه هو النصف الآخر الذي نحتاجه ويحتاجنا، نحبه ويحبنا، نتكل عليه ويتكل علينا!

رجع سليم إلى بيته سعيدا، ذهب يجري نحو أمه:

ـ «أمي! لقد قمت اليوم بالتقدم إلى فتاة، وأريد أن نذهب

غـدا لخطبتهـا».

ـ «حقا! أنا سعيدة جدا من أجلك يا بني، ابنة من هي؟»

أخبرهـا سـليم أنهـا فتـاة يتيمـة، وحـكى لهـا حكايتهـا باختصـار، قطبـت الأم حاجبيهـا وقالـت:

ـ «وهـل أنـت متأكـد يـا بنـي أنـك تريـد الـزواج مـن فتـاة لا أصـل لهـا؟»

ـ «لا أصـل لهـا! مـا هـذا الـذي تقولينـه يـا أمـي! أنـا أريـد أن أتزوجهـا هـي ولا أريـد أن أتـزوج أصلهـا! إنهـا فتـاة متخلقـة مثقفـة، أنـا متأكـد أنـك سـتحبينها! هيـا اقبـلي يـا أمـي أرجـوك! لا تخذلينـي!»

ـ «أنـا متأكـدة أننـي سـأحبها بمـا أنـك تحبهـا يـا بنـي، بنفـس القـدر الـذي أنـا متأكـدة فيـه أن أبـاك سـيرفض هـذا الـزواج رفضـا قاطعـا!»

ـ «أعـرف ذلـك ولذلـك أتيـت إليـك، مهمتـك أن تقنعيـه بذلـك، هيـا أرجـوك يـا أمـي!»

دائمـا مـا يلجـأ الرجـال لأمهاتهـم حينـما يتعرضـون لأمـور صعبـة في الحيـاة، فالرجـل مهـما كـبر ومهـما بلـغ مـن قـوة فهـو دائمـا يلجـأ إلى أمـه لتحـل لـه مشـاكله كـما كان يلجـأ إليهـا في صغـره حـين لا يسـتطيع إحـكام ربطـة حذائـه، فـالأم دائمـا مـا تسـاعد ابنهـا حتـى ولـو لم تشـاركه الـرأي فيـما يريـد فعلـه، فهـي تريـد لابنهـا

أن يكـون سـعيدا ولـو كانـت السـعادة في أمـور لا ترضاهـا هـي أو تجدهـا غـير صحيحـة، وكـم شـاهدنا في قنـوات التلفـاز مـن أم دخلـت السـجن ولا ذنـب لهـا سـوى أنهـا سـاعدت ابنهـا في ارتـكاب جريمـة أو بيـع مخـدرات أو التسـتر عليـه، ليحكـم عليهـا القـاضي بسـنوات سـجن عديـدة بتهمـة اتبـاع غريـزة أمومتهـا التـي تفـرض عليهـا منطـق: «أنـا مـع ابنـي مظلومـا أو ظالمـا».

أمـا الأب فهـو عكـس ذلـك تمامـا، فهـو يقـف في وجـه ابنـه حـين يـراه يقـوم بأمـر غـير صحيـح، وقـد تأكـد سـليم مـن ذلـك حـين سـمعه يـصرخ في أمـه قائـلا: «لـن أعيـد الـكلام مجـددا، لـن يكـون هنالـك أي زواج! أغلقـي هـذا الموضـوع فـورا!»

غلت الدماء في جسد سليم فاتجه إلى أبيه قائلا:

ـ «أبي، لقـد أخـبرت أمـي أننـي أريـد الـزواج مـن هـذه الفتـاة، ولم أخبرهـا أننـي أريـد أن أزوجهـا لـك، لذلـك دع لي حريـة الاختيـار أرجـوك، سـنتجه غـدا إليهـا وسـتخطبها لي!».

ـ «هـل أنـت مجنـون؟ هـل تريـد للنـاس أن يقولـوا أننـي خطبـت لابنـي فتـاة لا أصـل لهـا؟ أبواهـا مجهـولان؟ أو لنقـل ابنـة خطيئـة؟ هـل تريـد أن يصبـح اسـم عائلتنـا عـلى كل لسـان لأن الابـن الصغـير المراهـق المدلـل قـرر فجـأة أن يلطخـه؟»

ـ «ومـا دخـلي في كلام النـاس! أنـا أقـول لـك مجـددا أننـي أريدهـا أن تكـون زوجتـي وليـس زوجـة النـاس! لمـا تخـاف مـن كلام النـاس يـا أبي؟ لمـا

أنت متناقض؟ تعلمني أن أكون رجلا قوي الشخصية وأنت لا تمتلك شخصية أبدا؟ ما ذنبها إن أخطأ أبواها فنحكم عليها وهي فتاة بريئة؟»

ـ «لقد كانت اللعينة في أوروبا! هل تعرف ماضيها؟ هل تعرف ماذا فعلت هناك؟ ربما كانت عاهرة في إحدى بيوت الدعارة ما أدراك؟ كما أنها كانت مسيحية، ولا بد أنها خدعتك بدخولها الإسلام لكي تتزوج منك يا أيها الأحمق! ولو أخبرتها أنك يهودي لدخلت الديانة اليهودية، هذه الفتاة لا تبحث عن الإسلام بل تبحث عن غبي مثلك يسترها! هذه الفتاة لن تدخل بيتي وانتهى الأمر!»

ـ «أنا لا أبحث عن ماضي الفتاة يا أبي لأنني لست إلاها مثلك لأحاسب الناس على أخطائهم! وأنا أعرف هذه الفتاة أكثر منك وهي تمتلك من الأخلاق ما لم تحمله يوما يا أيها المبشر بالجنة، لن تدخل هذه الفتاة بيتك؟ لن أدخل إذا بيتك أيضا، سأخطبها وأتزوجها وأعيش بعيدا عنك! سأنجب منها أولادا وسأحرص على أن يزور أحفادك قبرك اللعين!»

ـ «أخرج من منزلي حالا! أنت لست ابني وأنا أتبرأ منك!»

خرج سليم من منزل والده وسط نحيب أمه التي كانت تترجاه أن يبقى وتترجى والده أن يقنعه بالبقاء، ذهب إلى المقهى وأخذ يسرد لصديقه رامي ما حدث له فقال له:

ـ «هل تريد أن أعطيك رأيي بصراحة؟»

ـ «أجل يا صديقي».

ـ «أظن أن أباك محق نوعا ما، لقد أخبرتني أنها كانت تعمل في حانة في مدينة برشلونة وتقضي لياليها هناك أيضا، هيا يا صديقي! افتح عينيك قليلا فالحب قد أغلقهما، ماضيها غير مشرف بتاتا، ماذا تنتظر من فتاة كانت تبيع الخمر في حانة؟ كما أنك تعلم أن النادلات أجرهن ضعيف وهن دائما ما يعملن ذلك العمل الثاني لتحصيل المزيد من الأموال! هل سألتها إن كانت عذراء، قد تجدها تحمل أمراضا جنسية أيضا كما أن.....».

استدار سليم نحو صديقه وقام بلكمه بشدة في وجهه، سقط رامي على الأرض بينما صرخ سليم قائلا: «أنت تتكلم عن زوجتي يا هذا! تبا لك! أنت لست صديقي بعد الآن! لقد سئمت هذه البلاد وعقلية سكانها! أنتم متخلفون جدا! أنتم رعاع! تبا لكم جميعا!»

ذهب سليم إلى الإقامة الجامعية للذكور، أين مكث هناك مع صديق آخر له يدعى فارس، أخبره سليم بكل ما حصل، فطمأنه فارس أن هذه الأمور بيد الله، وعليه أن يتوكل على الله وسيصلح له أمره ويقوده إلى الطريق الصواب، نام سليم ليلته هناك وكأنه يتقلب على الجمر، لم يحس بضيق لأن أباه رفض أن يخطب له الفتاة التي يحبها بقدر ضيقه من الأفكار السوداوية التي أخذت تلتهم رأسه، لقد تمكن أبوه وصديقه من زعزعة ثقته بالفتاة التي يحبها، وجد نفسه يفكر

«ماذا لو كانا محقين؟»، «ماذا لو كانت تريد الزواج كي تواري ماضيها؟» وإلى غيرها من الوساوس التي أنقضت مضجعه! وهذه الأمور تحدث دائما للشباب المقبل على الزواج، فما أن يختار الرجل شريكة حياته حتى تبدأ شياطين الإنس بالتفرقة بينهما بالعبارة الشهيرة «ماذا لو؟»، وكم من زيجة انفصلت قبل ارتباطها نتيجة لوساوس وأحكام يصدرها البعض غير مبالين تجعل الرجل يرفض الارتباط بمن خطط لسنين للزواج منها، وهذا الأمر لا يعفي النساء أيضا اللواتي يقذفن في الرجل أو المرأة دونما رحمة، وقد يقلن للرجل: «إنها ليست كما تظنها!» ويتركنه للوساوس، أو يقلن للمرأة: «لكنه لا يعمل!، إنه زير نساء!، انتظري قد تأتيك فرصة أفضل وتندمين!» وإلى غيرها من الوساوس التي حتى ولو رفضناها رفضا قاطعا فهي ستأتينا حينما نضع رؤوسنا على الوسادة لتتمنى لنا ليلة شقية بائسة مليئة بالهواجس والشكوك!

اتصل سليم بحبيبته في منتصف الليل: «حبيبتي، أبي يرفض رفضا قاطعا زواجنا وأنا لا أدري ما أفعل! لا تخافي يا روحي! أنا متيقن مما أفعل! سأتزوجك رغما عن الجميع!»، ردت عليه قائلة: «اهدأ يا حبيبي وفكر بعقلانية، أنا لا أريدك أن تخسر أي شخص كان من أجلي وخاصة عائلتك، فكر منطقيا، من حق أبيك أن يخاف على ابنه من فتاة لا يعرف أصلها، أنا أتفهمه جيدا يا سليم، علينا أن نعطي للأمر بعض الوقت كي نفكر بروية».

ـ «لكنني أريد أن نتزوج يا قدس، أريد ذلك بشدة».

ـ «أنا معك يا حبيبي، ولن أهرب إلى أي مكان، سأنتظرك أبد الدهر!»

اطـمأن قلـب سـليم بعـض الـشيء، ونـسي كل تلـك الهواجـس والشـكوك حـين سـمع صوتهـا، وقـال وهـو يخاطـب نفسـه: «أي حـق لديهـم ليحكمـوا عليهـا بالفسـق أو العفـة؟ هـل المظاهـر كافيـة كي نقـول عـن فلانـة أنهـا سـاقطة أ وشريفـة؟ كيـف يكـون ذلـك صحيحـا ونحـن نـرى في مجتمعنـا فتيـات مـن عائـلات محترمـة، يرتديـن الجلبـاب، ولا يتكلمـن إلا بالديـن ومـع ذلـك يمارسـن العلاقـات غـير الشرعيـة ومنهـن مـن يبعـن أجسـادهن أيضـا، بينـما نجـد أخريـات لا يرتديـن الحجـاب أصـلا، وربمـا آباؤهـن ذووا سـمعة سـيئة، لكنهـن عفيفـات، ولم يسـبق لهـن أن أقمـن علاقـة مـع أي كان، تبـا لـه! إنـه مجتمـع المظاهـر، مجتمـع يخـشى النـاس أكـثر مـما يخـشى اللـه، مجتمـع مسـلم بـلا أخـلاق!»

مـرت الأيـام، وسـليم بعيـد عـن منزلـه، يقـضي أيامـه بـين الإقامـة والجامعـة، ولا يحـادث سـوى حبيبتـه قـدس وأمـه في بعـض الأحيـان كي يطمئنهـا عليـه، كانـت المسـكينة تترجـاه كي يعـود إلى المنـزل وتخـبره أن أبـاه قـد عفـا عنـه، لكنـه كان يـأبى ذلـك، وشرطـه الوحيـد كي يعـود هـو الـزواج مـن قـدس، وحـين تأكـد أن ذلـك أمـر مسـتحيل وأنـه لـن يحـدث أبـدا برغبـة أبيـه قـرر أن يقـوم بالخطـوة وحـده، التقـى بقـدس في الجامعـة ودار بينهـما الحـوار التـالي:

ـ «حبيبتي هل تريدين حقا الزواج مني؟»

ـ «مـا هـذا الـكلام يـا حبيبـي! وهـل لديـك شـك! بالطبـع أريـد ذلـك، بـل أحلـم بـه كل ليلـة!»

ـ «فلنتـزوج إذا! تبـا لعائلتـي! أبي يرفـض زواجـي منـك رفضـا قاطعـا، وأنـا قـد تعبـت مـن اتبـاع أوامـره يـا حبيبتـي، لقـد كان يسـيّر حيـاتي وفـق رغباتـه منـذ صغـري، وكنـت أفعـل مـا يريـده لأنـه كان يظـن أنـه يعـرف مصلحتـي أكـثر منـي، ووجـدت نفـسي أفعـل مـا يريـده وليـس مـا أريـده أنـا، لطالمـا خطـط لمسـتقبلي وفـق رغباتـه لا رغبـاتي، لم يشـاورني يومـا في شيء يخصنـي أو سـألني عـما أريـد، هـو أبي لكنـه لا يعلـم مـا أحـب ومـا أكـره، لقـد أجـبرني منـذ صغـري أن أدرس القـرآن في المسـجد، وكنـت أذهـب كل يـوم مرغـما، كان شـيخ المسـجد شـخصا متخلفـا وكان يقـوم بتحفيظنـا القـرآن ضربـا، كنـا نحفظـه لأننـا نخـاف الجـلاد، وقـد شـكوت مـرات عديـدة لأبي أن هـذا الشـيخ كان يضربنـي وكانـت ردة فعلـه أن يعاقبنـي هـو الآخـر، أذكـر مـرة أننـي كنـت أملـك لوحـة خشـبية جميلـة صممتهـا بنفـسي كي أكتـب عليهـا الآيـات القرآنيـة وأحفظهـا، كنـت أحـب كثـيرا لوحتـي، دخلـت في إحـدى الأيـام كعـادتي إلى المسـجد لكننـي لم أجدهـا، سـألت شـيخ المسـجد عنهـا فأخـبرني انـه أعطاهـا لفتـاة أخـرى وأمـرني أن أبحـث عـن لوحـة أخـرى، قلـت لـه أننـي أريـد لوحتـي، لكنـه قـام بـضربي ضربـا مبرحـا، وأعطـاني لوحـة أخـرى وأمـرني أن أكتـب فيهـا وأصمـت، قمـت بكسرهـا ورميتهـا في وجهـه وهربـت إلى المنـزل، ومـا أن وصلـت إليـه حتـى وجـدت أبي ينتظـرني عنـد البـاب، كنـت أريـد أن أشـكوه ظلـم شـيخ المسـجد لي لكننـي لم أملـك الوقـت لذلـك، فقـد بـادرني بالـضرب المـبرح، بكيـت يومهـا كثـيرا وهـا أنـا اليـوم شـاب يافـع ولم تشـف جراحـي بعـد! كان حلمـي أن أدخـل مجـال الموسـيقى، حلمـت أن أحمـل قيثـارة في يـدي أعـزف بهـا ألحـاني لكـن للأسـف لم تكـن الموسـيقى حلـم أبي لذلـك لم أمارسـها، حلمـت أن أدرس تخصـص لغـة إنجليزيـة في الجامعـة لكنـه لم يـرق لأبي فلـم أختـره، واليـوم أردت أن أتزوجك

لكن أبي يرفض، هو يريد تزويجي من فتاة يريدها، أو لنقل هو يحلم بذلك، لأنني لن أطيعه بعد الآن، سمني عاصي والدين إن أردت ذلك، لكنني سئمت من كوني دمية يلعب بها أبي كما يشاء، لقد سمحت له طيلة حياتي بوضع اختياراته فوق اختياراتي ولم أنبس ببنت شفة، لكنني لن أسمح له إطلاقا باختيار المرأة التي سأقضي معها بقية حياتي!»

ـ «أنا أفهمك جيدا يا حياتي، لكنه يبقى في النهاية أبوك، وعليك أن تطيعه في كل شيء، الزواج دون رضى الوالدين زواج لا معنى له وغير مبارك من عند الله، أنا أرغب بك بشدة يا سليم، لكنني لا أريد أن أكون السبب في تفكيك عائلة، فكر مجددا في أمر الزواج أرجوك!»

ـ «لقد فكرت جيدا يا قدس، وقررت أن أتقدم غدا لخطبتك، سأتزوجك يا قدس إلا إن رفضتِ أنت ذلك، ودعي أمر عائلتي لي من فضلك».

ـ «لكنك في هذه الحالة ستحرمني من حماتي يا حبيبي، ستحرمني من أم لطالما رغبت بها، لقد حرمتني الدنيا من أم بيولوجية فلا تحرمني أنت مجددا من أم روحية، لطالما حلمت أن تبارك أمك زواجنا، حلمت أن نخيط معا الثياب، ونتعاون في إعداد الطعام، حلمت أن تتابعني في شهور حملي وتنصحني في كيفية الاعتناء بجنيني، وحين ألده تفرح معي وتعلمني كيفية إلباسه الحفاظات وكيفية تنظيف جسمه وغيرها من الأمور التي تعرفها الأمهات نتيجة الخبرة التي اكتسبنها خلال ولادتهن لأطفالهن، حلمت أن يكون أبوك أبي، وأقوم بالاعتناء به كما

أعتنـي بـك تمامـا، وأقـدم لـه الهدايـا في عيـد ميـلاده، وأطبـخ لـه ألـذ المأكـولات، لكنـك بتصرفـك هـذا سـتحرمني مـن عائلـة كنـت أحلـم بـأن أكـون فـردا فيهـا، سـتحرمني مـن أن أكـون ابنـة، وهـو الأمـر الـذي أحتاجـه بنفـس احتياجـي لـكي أكـون زوجـة، هيـا يـا حبيبـي جـد حـلا آخـر!»

ـ «لـو وجـدت حـلا آخـر لاقترحتـه يـا صغـيرتي، لكـن هـذا كل مـا لـدي، أنـا أيضـا كنـت أحلـم أن يفـرح والـداي بزواجـي، وأن أسـأل أمـي عـن الهدايـا التـي أقدمهـا لـك، فهـي امـرأة وتعـرف جيـدا مـا تحبـه النسـاء، كنـت أريـد أن أقـف بفخـر أمـام أبي وأنـا أرتـدي البذلـة السـوداء الكلاسـيكية، وهـو مبتسـم فخـور بي! كنـت أريـد أن أقـول لـه بفخـر أن زوجتـي حامـل! وكأننـي أقـول لـه لقـد ولـدت يـا أبي رجـلا فحـلا قـادرا عـلى جعـل امـرأة حامـل! سـيفرح بي خاصـة إن كان المولـود ذكـرا لأن أبي العزيـز مـن سلاسـة قريـش وهـو يحـب الذكـور أكـثر مـن الإنـاث! حلمـت أن أرى ابنـي يناديـه جـدي! حلمـت أن ينصحنـي حـين نتشـاجر أنـا وأنـت أو نختلـف ويـردني إلى طريـق الصـواب إن أنـا أخطـأت، لكـن كل هـذا حلـم، لأنـه أقسـم أنـك لـن تدخـلي بيتـه، فتبـا لـه وتبـا لبيتـه! لنتـزوج!»

بـاءت كل محـاولات قـدس بالفشـل، فسـليم قـد قـرر أن يتزوجهـا دون مباركـة والديـه، تقبـل والـدا أنفـال الأمـر بصعوبـة، وفي النهايـة وافقـا، أيـن تقـدم لخطبتهـا منهـما ثـم حـددا تاريـخ الـزواج.

أتى اليـوم الموعـود، ولبسـت قـدس الفسـتان الأبيـض، ذلـك

الفستان الذي تحلم الفتيات بارتدائه منذ صغرهن، بدت جميلة جدا، وزادها الفستان الأبيض جمالا، كانت في بيت صديقتها تنتظر زوجها ليأخذها في موكب سيارات إلى قاعة الأعراس أين كانت النسوة تنتظرنها بشغف، أتى سليم ببذلته السوداء، تلك البذلة التي يخطط الرجال لشرائها أشهر قبل الزواج لكنهم في النهاية لا يفعلون ذلك إلا في الليلة الأخيرة ومن عند أقرب بائع للبذلات الكلاسيكية!

تأبطت قدس ذراع سليم وخرج الاثنان من المنزل تحت أصوات زغاريد النسوة وبارود الرجال الذين كانوا يرمون ببنادقهم التقليدية طلقات مدوية، ركب عصفورا السعادة في السيارة وانطلقا إلى قاعة الأفراح، دخل الاثنان وجلسا في مقعدهما أين كانت جميع الأنظار موجهة إليهما، وبدأت نميمة النسوة المعتادة: «انظري كم هو وسيم! لا أدري كيف قبل الزواج منها!، إنها مسيحية لا تملك أي أصل وقد قامت بالاستعانة بأحد المشعوذين لسحره وجذبه للزواج منها!، لقد سمعت أنها كانت عاهرة في برشلونة!، فستانها طويل أكثر من اللازم!، لقد أفسدت الماشطة شعرها!، ما أكثر مساحيق التجميل في وجهها!، انظري إلى مشيتها، لا بد أنها لم تلبس كعبا عاليا في حياتها!»، وإن حدث ونظرت قدس إلى إحدى هؤلاء النسوة، ابتسمت هذه الأخيرة لها وقالت: «آه حبيبتي! أنت جميلة جدا! زوجك محظوظ بك!»

انتهى العرس بنميمته اللامتناهية، وحتى عندما ينتهي

العرس تمضي النسوة أياما عديدة وهن يطلقن أحكاما على العروس وصديقاتها وأقربائها وجميع من كان في القاعة، ولا يتوقفن عن فعل ذلك إلى أن يحين عرس آخر، وموضوع آخر للنميمة! أخذ سليم زوجته وذهبا إلى شقتهما، تلك الشقة الصغيرة الباهظة الثمن التي تقع في مدينة «الشراقة» والتي تعاون الاثنان معا لكرائها.

أمضى الزوجان شهر عسلهما في «تونس»، أين زارا مدنها السياحية الشهيرة «سوسة، الحمامات، القيروان، نابل» وختما رحلتهما بزيارة جزيرة «جربة» أين تعرفا على اليهود هناك، ثم رجعا إلى الجزائر وقضيا أيامهما بين الدراسة والعمل.

كانت قدس تخيط الأثواب وتبيعها، بينما عمل سليم بائعا بإحدى المتاجر الكبرى في الفترة المسائية، وزاول الاثنان دراستهما بطريقة عادية.

مضت السنوات، وتخرج الزوجان من الجامعة بشهادتي ماستر في علم النفس وماستر في اللغة الاسبانية، تمكنت قدس من إيجاد عمل لها كأستاذة في الطور الثانوي، بينما لم يجد سليم عملا فاكتفى بزيادة ساعات عمله كبائع في المتجر أين صار يعمل بدوام كامل.

كانت المحادثات مع الجميع تتم هكذا: «صباح الخير كيف حالكما؟ هل من طفل في الطريق؟»

وهـذا هـو حـال المتزوجـين الجـدد، فـما أن تمـضي أشـهر عـلى زواجهـم حتـى يضـع المجتمـع سـماعات عـلى بطـن المـرأة يبحثـون فيـه عـن دقـات قلـب إضافيـة، ويـا ويلهـا مـن لم تحمـل بطفـل بعـد سـنوات مـن زواجهـا.

وبمـا أن المجتمـع ذكـوري، فالجميـع سـيلقي اللـوم عـلى الزوجـة بأنهـا هـي العاقـر، ولا يمكـن للرجـل أن يكـون عقيـما لأن قـول ذلـك ينقـص مـن رجولتـه في مجتمـع لا ينقـص مـن قيمـة الرجـال.

وهنالـك منهـم مـن يلـوم زوجتـه أيضـا لأنهـا لم تحمـل، وقـد يطلقهـا أيضـا أو يتـزوج بامـرأة ثانيـة دون أن يعـرض نفسـه عـلى طبيـب أو حتـى يتسـاءل إن كان المشـكل منـه.

سـليم لم يكـن مـن ذلـك النـوع، لأنـه تلقـى تعليـما جامعيـا ولديـه ثقافـة واسـعة وثقـة باللـه، كان يجيـب الجميـع بجملـة واحـدة: «لم يعطنـا اللـه ذريـة بعـد، ونحـن ننتظـر دورنـا»، أمـا قـدس فقـد أصبحـت تتجنـب الحديـث مـع النسـوة لأنهـا سـئمت مـن تدخلاتهـن في حياتهـا، كانـت هـي الأخـرى تعلـم أن الحمـل والـولادة هـما رزق مـن اللـه يعطيهـما لمـن يشـاء ويحـرم منهـما مـن يشـاء.

مـع ذلـك فقـد بـدأت المشـاكل الزوجيـة، تلـك المشـاكل التـي يظـن جميـع المتزوجـين أنهم مسـتثنون منهـا، وأنهـا لـن تمسـهم كـما مسـت غيرهـم، ومعظمهـا نتيجـة أسـباب تافهـة كغـيرة الرجـل المفرطـة أو عصبيـة المـرأة الدائمـة، وكلاهـما يصـب في خانـة «مـن كنـتِ تكلمـين في الهاتـف؟ كيـف خرجـتِ مـن المنـزل دون أن تخبرينـي؟» و«لمـا لم

تتصل بي يوما كاملا؟ هل عملك أفضل مني؟ كيف تنسى عيد زواجنا! سئمت من إهمالك لي!»، وتنتهي هذه الشجارات غالبا ببكاء المرأة وغضب الرجل وبرود تدريجي في مشاعرهما.

تمضي السنوات لتجد الزوجة نفسها أمام رجل عادي لديها حقوق وواجبات معه، ويجد الزوج نفسه أمام امرأة عادية لديه حقوق وواجبات معها.

كان الزوجان يدركان أن المنزل قد صار موحشا، وما أوحش المنزل الذي لا يوجد فيه أطفال يملؤونه صخبا وفوضى، لم يتجرأ أحدهما أن يخبر شريكه بما يختلج في صدره، لكن الشجارات تجعلنا نقول أي شيء من شأنه أن يجرح الطرف الآخر بقسوة، وقد وجد سليم نفسه في إحدى الشجارات يصرخ في زوجته قائلا: «كل هذا بسببك! لأنك لم تستطيعي أن تنجبي لنا طفلا كما تفعل كل النساء! المنزل خال يا قدس! هل يجب أن أخبرك أيضا أن الرجل يتزوج رغبة منه في أن يترك خليفة لعرشه أكثر من رغبته في المرأة في حد ذاتها! أنت لا شيء بالنسبة لي دون أطفال! ربما أبدو لك لا أهتم بأمر الصغار، لكنني رجل يا قدس! وغريزتي الرجولية تريد لهذا البيت أن يمتلئ أطفالا! الحب ليس كل شيء يا امرأة! الحب لا يكتمل إن لم نتشاركه مع قطع لحم صغيرة تنادينا بابا وماما! لقد ذهبت دون أن أخبرك إلى طبيب، وقد أكد لي أن المشكل ليس مني وأنه يمكنني الحصول على أطفال متى أردت ذلك! لقد خجلت مرارا أن أطلب منك الذهاب إلى طبيب للفحص لكن الظاهر أنك لا تريدين فعل ذلك من تلقاء نفسك، أتعلمين ما أظن يا قدس؟ أظن أنه عليك أن تزوري طبيبا في أقرب وقت!»

كانت قدس تنظر إلى سليم بدهشة، فهذه أول مرة بعد خمس سنوات من الزواج يكلمها بهذه الطريقة القاسية ويحطم مشاعرها ويكسر خاطرها بلا رحمة! انفجرت باكية وسقطت على الأرض وقد خارت قواها، أحس سليم بالذنب فتقدم نحوها واضعا يده على رأسها وقال لها: «أنا آسف يا حبيبتي، أنا لم أقصد قول ذلك، إنه الغضب فقط من استبد بي، اعذريني يا روحي!»

نظرت إليه قدس بكل حزن والدموع تملأ مآقيها: «ألا تعلم أننا لا نقول الحقيقية الصافية إلا في ساعات الغضب؟ حينما نغضب يا سليم فنحن نقول كل ما نفكر به وكل ما نحس به دون أن نهتم لمشاعر الآخر، أتعلم أكثر ما يؤلمني يا سليم؟ هو أن كل ما قلته صحيح، هل تظن أنني لا أكترث لأمر الأطفال؟ هل هنالك امرأة في هذا العالم لا تريد أن يكون لديها طفل يملأ حياتها بهجة وفرحا؟ أنا أعرف أنني لم أنجب لك أي طفل طيلة هذه السنوات وهذا الأمر يدمرني يا سليم، أنا أتحطم كل يوم لكنني لا أبدي ذلك كي لا تتألم، أنا أحس بالذنب اتجاهك واتجاه زواجنا، أنا أدعو الله في كل سجود أن يرزقني ولدا منك، لكن هذا الأمر فوق طاقتي يا سليم، وقد خفت مرارا أن أذهب إلى طبيب فيقطع أملي نهائيا لذلك بقيت أدعو الله أن يرزقني، فأن أعيش على أمل الإنجاب يوما ما أفضل لي من فقدان ذلك الأمل نهائيا، سليم، إن أحسست أنني خيبت ظنك أو خذلتك فأنا أسمح لك أن تطلقني، تزوج امرأة أخرى فأنا امرأة عاقر فاشلة!»

ـ «لا تقولي ذلك يا حبيبتي! مازال هناك أمل، سنزور كل الأطباء وسنجد حلا لذلك، لن أتخلى عنك أبدا يا قدس، أرجوكِ لا تبكِ».

أحست قدس يومها أنها قد وصلت مع سليم إلى نقطة النهاية، فعلاقتهما لم تصبح الآن علاقة حبيبين، بل صارت علاقة أخذ ورد، أعطيك هذا بشرط أن تعطيني ذاك، وإن وصلت العلاقة إلى هذه الدرجة من البرود فوداعا للحب ووداعا للزواج!

**********

أمضت مونيكا كل هذه السنوات في الدراسة ومراسلة حبيبها كزافيه، وحين بلغت سن الرشد صار بإمكانها زيارته في السجن أين كانت تعد له أشهى المأكولات، وبعد أن أكمل فترة عقوبته تقدم إلى خطبتها وتزوجا، أين استأجرا سكنا في برشلونة وعملت مونيكا كممرضة في إحدى العيادات الخاصة بينما عمل كزافيه كسائق سيارة أجرة.

كانت حياتهما سعيدة، وما زاد سعادتهما هو ذلك الصغير الذي كان يتقلب في بطنها يمينا وشمالا، كان كل منهما ينتظره بشغف، وما أسعد الزوجين بمولودهما الأول!

وفي إحدى المرات وبينما كانت مونيكا في منزلها سمعت دقات على الباب، فتحته فوجدت شابا لم تره من قبل، ابتسم قائلا: «هل أنت السيدة مونيكا؟»

ـ «نعم أنا هي، من حضرتك؟»

ـ «أنـا السـيد بيـدرو، وقـد كنـت عـلى علاقـة بصديقتـك قـدس، لقـد حكـت لي الكثـير عنـك، وقـد بحثـت طويـلا كي أجـدك».

لم تقـو مونيـكا عـلى الوقـوف حينـما سـمعت اسـم صديقتهـا الحميمـة، والتـي لم ترهـا أو تسـمع عنهـا شـيئا منـذ أن أعطتهـا ذلـك الحبـل في العيـادة، صرخـت قائلـة: «قـدس! أدخـل يـا سـيدي!»

دخـل بيـدرو ومـا أن اعتـدل في جلسـته حتـى بـدأت مونيـكا بإمطـاره بالأسـئلة: «أيـن هـي؟ كيـف حالهـا؟ هـل هـي بخـير؟ احـك لي كل شيء! هـل هـي سـعيدة؟ لمـا لم تراسـلني؟ هـل تسـكن هنـا؟ لنذهـب إليهـا!»

ـ «هوني عليك يا أختي، سأحكي لك كل شيء».

بـدأ بيـدرو بـسرد حكايتـه مـع قـدس، منـذ أن رآهـا في الفنـدق إلى أن عملـت بالحانـة وصـولا إلى سـفرهما إلى الجزائـر والتقائهـا بأمهـا ثـم انفصالهـما نهائيـا، وختـم كلامـه قائـلا: «وأنـا الآن قلـق بشـأنها لأننـي راسـلتها مـرارا ولم تجبنـي، حتـى أنهـا غـيرت رقـم هاتفهـا، لذلـك قصدتـك لأسـتفسر منـك عنهـا لكـن الظاهـر أنـك أجهـل منـي عـن مصيرهـا».

ـ «قـدس فتـاة قويـة مسـتقلة، لا تخـف عليهـا، وهـذا النـوع مـن النسـاء يفضـل الانطـواء ويرغـب بالعيـش لوحـده ولا يشـارك حياتـه مـع أي شـخص كان، لقـد كنـت صديقتهـا الوحيـدة لمـدة عـشر سـنوات لكنهـا مـا أن خطـت عتبـة ذلـك الديـر حتـى نسـتني ونسـت

عشرتنا، قدس ليست مثلنا يا بيدرو، أنا متأكدة أنها بالكاد تذكرني وبالكاد تتذكرك، نحن نتأثر حين يخرج شخص ما من حياتنا ونبقى متعلقين به نتحرى عن أخباره ومصيره، لكن هذا النوع من الأشخاص لا يهمه من دخل أو خرج من حياته، هم يفرحون ويسعدون بوجودك، لكنهم لا يحزنون لغيابك، لقد كانت قدس وحيدة يا بيدرو، لطالما كانت كذلك حتى وهي معي، وهي الآن في الجزائر تعيش وحيدة حتى ولو كانت مرتبطة أو لديها عائلة».

ـ «لكنها صديقتك وحبيبتي السابقة، لا بد لنا من البحث عنها فقد يحدث لها مكروه ما لا سمح الرب».

ـ «أنا لا أعلم أين ذهبت، بينما هي تعرف الدير جيدا، وقد أتت هناك في إحدى المرات لكنها لم تكلف نفسها عناء السؤال عني، لو أرادت أن تبحث عني لفعلت، فأنا صديقتها التي ضاقت الأمرين في سبيلها، أنا أحبها يا بيدرو، لكنني سئمت من أنانيتها، لذلك فأنا آسفة، لن أبحث عنها رغم أنني أقدر لك فعلا إن أنت أخبرتني عن مصيرها بعد بحثك عنها».

كانت مونيكا تتكلم بألم، فرغم حبها الشديد لصديقتها إلا أن فكرة أنها تخلت عنها ولم تبحث عنها جعلتها تموت كمدا، أرادت أن تشتم قدس وتضربها وفي الوقت نفسه تحتضنها وتقبلها بشدة!

أما بيدرو فقد رجع إلى منزله وهو يفكر في هذه الفتاة

التـي حـاول أن ينسـاها لمـدة خمـس سـنوات لكنـه لم يتمكـن مـن ذلـك، لم يسـتطع أن يدخـل في أيـة علاقـة طيلـة هـذه المـدة، وقـد أدرك اليـوم أنـه لازال يحـب قـدس، أو لنقـل قـد علـم أنـه لـن يسـتطيع التوقـف يومـا عـن حبهـا!

جـرب بيـدرو كل المحـاولات للوصـول إلى قـدس، لكنـه لم يتمكـن مـن معرفـة مكانهـا، ووصـل في الأخـير إلى القـرار التـالي: سـأبحث عنهـا في الجزائـر!

وجـد بيـدرو نفسـه بعـد أيـام في مطـار هـواري بومديـن الـدولي، ركـب سـيارة أجـرة واتجـه إلى فنـدق الشـيراطون لأنـه الفنـدق الوحيـد الـذي بـدأ منـه كل شيء، وجـد موظـف الاسـتقبال في انتظـاره فأخـذ يحادثـه بلغـة فرنسـية رديئـة، وبالـكاد فهمـه الموظـف عـلى أنـه يبحـث عـن شـخص مـا كان مقيـما في هـذا الفنـدق في تاريـخ معـين، أجابـه الموظـف:

ـ «آسـف سـيدي، لا يمكننـا إعطـاء معلومـات الأرشـيف إلا للسـلطات المعنيـة».

ـ «لكن الفتاة التي أبحث عنها هي زوجتي!»

ـ «آسـف يـا أخـي، يمكنـك التقـدم ببـلاغ للشرطـة، لا يمكننـي مسـاعدتك».

وضـع بيـدرو يـده في جيبـه وأخـرج أوراق نقديـة مـن فئـة 1000 دينـار ووضعهـا أمـام الموظـف قائـلا: «لـن يعـرف أحـد أننـي

اطلعت على المعلومات، هيا أرجوك، أنا أحتاج إلى المساعدة!»

وضع الموظف الأوراق النقدية في جيبه، ثم أحضر دفتر المعلومات الشخصية، بحث بيدرو فيه بسرعة حتى وجد المعلومات التي يبحث عنها، لقد أمضت قدس أسبوعا في الفندق بعد ذهابه، ووجدها قد كتبت في خانة العمل : «طالبة بجامعة الجزائر»، انطلق بيدرو إلى الجامعة أين تمكن من معرفة أن قدس قد درست خمس سنوات هنا وتخرجت وهي الآن أستاذة بثانوية «عمر راسم» بالجزائر الوسطى، ذهب بيدرو إلى الثانوية وسأل عنها فأخبروه أنها في القاعة تدرس الآن، أخبرهم أنه أخوها وأن الأمر عاجل، فقام مراقب الثانوية بإخبارها أن أخاها ينتظرها خارجا، خرجت قدس لتصعق برؤية بيدرو أمامها!

ـ «بيدرو! ما الذي أتى بك إلى هنا!»

ـ «الحب، الحب هو من أتى بي إلى هنا يا حبيبة قلبي، أنا آسف لأنني تركتك! لكنني لم أستطع نسيانك طيلة هذه السنوات! لقد أمضيت الوقت كله أفكر بك، أنا لا أستطيع العيش من دونك يا روحي لا أستطيع!»

ـ «آه يا بيدرو، لما أتيت! تأتي بعد كل هذا الوقت لتقول لي هذا الكلام بعد فوات الأوان! نحن لن.....».

ـ «لم يفت الأوان يا روحي، هيا لنتزوج، وسأعيش معك هنا أو هناك أو في مدغشقر، أو في الجحيم إن أردت، أريد أن أقضي سنواتي القادمة معك، لن أتركك ثانية يا روحي أعدك بذلك! هيا

اقبــلي أرجــوكِ!»

ـ «بيدرو توقف!»

ـ «لن أتوقف!»

ـ «أنظر يا غبي!»

رفعــت قــدس يدهــا أمامــه أيــن اســتقرت عينــاه عــلى خاتــم الــزواج، نظــر إليهــا وقــال:

ـ «آه تبــا! كيــف لم أفكــر في ذلــك! لقــد تزوجــتِ يــا قــدس! أجــل ومــن يــترك امــرأة مثلــك تضيــع مــن بــين يديــه ســوى غبــي مثــلي! لا بــد أن الرجــال يحومــون حولــك، وكيــف لا يفعلــون! حســنا ســأذهب الــوداع!»

ـ «انتظــر! أجــل أنــا متزوجــة، لقــد تعرفــت بشــاب أحبنــي وأحببتــه، شــاب لم يخذلنــي، ونحــن الآن متزوجــان منــذ ســنوات، إن أردت لــوم شــخص مــا فلــم نفســك، أنــت مــن ذهبــت وتركتنــي وحيــدة في بلــد غريــب! لكــن أتعلــم شــيئا؟ لقــد اشــتقت إليــك رغــم ذلــك، وكان مــن الجيــد رؤيتــك».

ـ «هل نستطيع أن نكون أصدقاء مجددا؟ مجرد أصدقاء؟»

ـ «أجــل يــسرني ذلــك هــا هــو رقــم هاتفــي، اتصــل بي متــى تشــاء».

نظـر بيـدرو إلى قـدس نظـرة أخـيرة واسـتدار راجعـا، مـشى بضعـة خطـوات ثـم التفـت إليهـا قائـلا: «مونيـكا تبلغـك السـلام!» ثـم أكمـل طريقـه، تجمـدت قـدس في مكانهـا ولم تتمكـن مـن نطـق كلمـة رغـم أن رأسـها كان مليئـا بالأفـكار وأخـذت تراقـب بيـدرو حتـى اختفـى عـن الأنظـار!

أحسـت قـدس بالحنـين، ذلـك الحنـين الـذي نحسـه اتجـاه أشـخاص كانـوا يمثلـون يومـا مـا الحيـاة بالنسـبة إلينـا، لكـن الأقـدار شـاءت أن نفـترق وننسـاهم، وبمجـرد أن نراهـم مـرة ثانيـة ترجـع كل تلـك الأحاسـيس التـي كنـا نحسـها معهـم وكأنهـا لم تذهـب يومـا، وحينهـا نـدرك أن المشـاعر لا تذهـب بـل تكتفـي بالاختفـاء فقـط!

مرت أيام قبل أن يرسل بيدرو رسالة نصية إلى قدس:

«سـيدتي قـدس، لم أتوقـع أنـه سـيأتي يـوم أناديـك فيـه بسـيدتي بـدل حبيبتـي، لكـن الدنيـا تـأبى إلا أن تعاكسـنا لتجـري رياحهـا بمـا لا تشـتهيه سـفننا، أردت فقـط أن أخـبرك أننـي كنـت أحبـك وأمضيـت خمـس سـنوات وأنـا أحبـك، وأحـضرني الحـب إليـك، وزاد حبـي حـين رأيتـك واشـتعل فـؤادي شـوقا لـك! لكننـي أتذكـر بعدهـا أنـك امـرأة متزوجـة، وأنـك صنعـتِ طريقـك بنفسـك كـما اعتـدتِ أن تفعـلي، وأنـا أحـترم قـرارك وسـعيد لأنـك سـعيدة رغـم أن قلبـي يحـترق غـيرة وألمـا وكمـدا! كل أمـلي الآن أن تعيـشي سـعيدة، ففكـرة أنـك سـعيدة تريـح قلبـي، وتزيـل عنـه بعـض الآلام، هـذا هـو رقمـي، لا زال نفسـه، لم أغـيره طمعـا في أن ترسـلي لي يومـا، لكنـك لم تفعـلي، وأنـا لا

ألومـك، حاولـت بعدهـا أن أراسـلك مـرارا لكننـي وجدتـك قـد غـيرت رقـم هاتفـك، لا يهـم، كيـف حالـك؟»

كانـت قـدس تتنـاول الغـداء مـع سـليم، رن هاتفهـا فقامـت بفتحـه لتجـد رسـالة مـن طـرف بيـدرو، اضطربـت، وأقفلـت هاتفهـا بسرعـة ووضعتـه في جيبهـا، سـألها سـليم: «أمـا زالـت أنفـال تختـار وقـت الغـداء لتزعجـك؟» أجابتـه: «أجـل! لقـد صرت أتجاهـل رسـائلها، كـم هـي مزعجـة!»

أكملـت قـدس غداءهـا، خـرج سـليم إلى العمـل، فقامـت بفتـح هاتفهـا وقـراءة الرسـالة، ابتسـمت ثـم أرسـلت لـه:

ـ «مرحبـا، شـكرا لـك أقـدر لـك كل مشـاعرك، لكننـي أريـدك أن تتذكـر دائمـا أننـي امـرأة متزوجـة وتعاملنـي عـلى أسـاس ذلـك».

ـ «بالطبع، أنا أحترم ذلك ولن أتخطى حدودي معك، أعدك».

ـ «بيدرو، أريد أن أسألك عن أمر».

ـ «تفضلي».

ـ «لقـد أخبرتنـي حـين التقينـا أن مونيـكا تبلغنـي السـلام، هـل التقيتهـا؟ وكيـف كان ذلـك؟»

حـكى لهـا بيـدرو قصـة التقائـه بمونيـكا، وقـال لهـا: «وهـي الآن منزعجـة منـك لأنـك أتيـت إلى الديـر ولم تبحثـي عنهـا، ورغـم ذلـك طلبـت منـي أن أزودهـا بأخبـارك».

ـ «حسنا أبلغها السلام واعتذاري الشديد، أنا لم أرد أن أورطها أكثر مما ورطتها فيه، لكنني أشتاق إليها فعلا، بعض الصداقات قد لا يكتب لها الاستمرار ولا الأبدية!»

ـ «سأحرص على إخبارها بذلك».

ـ «علي أن أذهب إلى العمل الآن، وبالمناسبة إن أردت فقط أن تعرف، أنا لست سعيدة بحياتي الزوجية، إلى اللقاء!»

ذهبت قدس إلى العمل، أين كانت تدرس اللغة الإسبانية، تلك اللغة الجميلة التي نحلم جميعنا أن نتعلمها لكننا نتقاعس عن ذلك، تلك اللغة التي تحتل المرتبة الثانية في العالم والتي تعتبر اللغة الرسمية لحوالي واحد وعشرين دولة، تلك اللغة التي نستمتع بسماعها في أقوى الأفلام العالمية كفلم «ثلاثة أمتار فوق السماء»!

كانت قدس تحب عملها كثيرا، خاصة وأنها بارعة فيه كون اللغة الإسبانية هي لغتها الأم، كانت تستمتع بتعليم تلاميذها هذه اللغة الجميلة، وتعمل على تدريبهم على التحدث بها وتصحيح أخطائهم اللغوية، ولذلك فقد كان التلاميذ يحبونها كثيرا، ويشاركونها حبها للغة، كان اهتمامها منصبا على العمل وعلى زوجها فقط، هذا قبل أن يدخل بيدرو إلى حياتها ثانية ليخلط الأوراق، فقد صارت في الآونة الأخيرة شاردة الذهن لدرجة أن تلاميذها لاحظوا ذلك، كانت تستعمل الهاتف خلال الحصص الدراسية، لأنها لا تستطيع في أغلب الأوقات فعل ذلك أمام زوجها في البيت، صارت المحادثات بينها وبين بيدرو يومية، فقد وجدت

مـن يمـلأ فراغهـا العاطفـي وحاجتهـا الأنثويـة إلى الرومانسـية، تلـك التـي فقدتهـا مـن زوجهـا جـراء العديـد مـن الخلافـات الزوجيـة، وقـد اسـتغل بيـدرو ذلـك الفـراغ أحسـن اسـتغلال، وانتهـز كل فرصـة ضعـف منهـا ليصـف لهـا جمالهـا الأنثـوي، وجسـدها الـذي مـازال مغريـا كـما كان قبـلا وإلى آخـر تلـك التعويـذات الرجوليـة التـي توقـع أيـة أنثـى كانـت، وأيـة أنثـى لا تحـب أن يخبرهـا أحدهـم أنهـا أجمـل امـرأة في العـالم؟

ـ «أستاذة لقد كتبتِ Lola esta en Mexico».

ـ «أجل وما الأمر؟».

ـ «لكنها في غواتيمالا وليست في المكسيك».

ـ «آه آسفة أنت محق، إنه خطئي!»

ـ «أستاذة لقد نسيت حرف الـ s في كلمة Los Platanos».

ـ «آه آسفة جدا! شكرا لك».

رجعـت قـدس إلى منزلهـا، وهـي في قمـة التعـب، لقـد كانـت تعـرف أن شـيئا مـا يشـغل تفكيرهـا، وهـذا الـشيء هـو مشـاعرها، فلطالمـا كانـت مشـاعرنا هـي سـبب تعاسـتنا، لأنهـا تـأبى أن توافـق عقلنـا، وتمـشي دائمـا عكسـه والمنطـق، فقـد تبتعـد مثـلا عـن الكحـول والمخـدرات لأنـك تعلـم أنهـا حـرام وأنهـا مـضرة بالصحـة، لكـن مشـاعرك لا تعـترف بعقلـك وتشـعرك دائمـا بحبـك لتلـك الممنوعـات، وكذلـك الحـب الممنـوع، وهـو حـب الزوجـة لرجـل آخـر والـذي يعتـبره

العقـل والمنطـق خيانـة زوجيـة لا تسـمح بهـا الأخـلاق ولا المنطـق ولا الديـن ولا المجتمـع، لكـن كـم مـن امـرأة وجـدت نفسـها تحـب رجـلا آخـر غـير زوجهـا، وهـذا مـا حـدث لقـدس، فقـد ظنـت حينـما تزوجـت أن سـليم هـو حبهـا الأول والأخـير لأنهـا كانـت تظـن أنهـا لم تحـب بيـدرو يومـا، ومـا أن تزوجتـه حتـى بـدأ ذلـك الحـب يمـوت شـيئا فشـيئا إلى أن اندثـر، لينمـو مكانـه حـب خاطـئ، حـب تجرمـه الطبيعـة، حـب حاولـت قـدس أن تقتلـه في مهـده لكنـه أبى إلا أن ينمـو أكـثر، ضاربـا بعقلهـا ومنطقهـا ودينهـا وأخلاقهـا عـرض الحائـط، وكـم مـن امـرأة رسـت بهـا سـفنها في ميناء الخيانـة الزوجيـة وضاعـت جراءهـا حياتهـا وتهدمـت مملكتهـا التـي بناهـا عقلهـا ودمرتهـا مشـاعرها.

قـررت قـدس في ذلـك اليـوم أن تقطـع علاقتهـا نهائيـا مـع بيـدرو، دخلـت المنـزل، غـيرت ثيابهـا، ثـم اتجهـت إلى المطبـخ لتعـد الغـداء لزوجهـا، ومـا أن مـرت بالغرفـة حتـى وجـدت أن زوجهـا قـد نـسي حاسـوبه المحمـول مفتوحـا، ذهبـت لإطفائـه لكـن تلـك الأنثـى المتشـككة داخلهـا دفعتهـا إلى أن تلقـي نظـرة عـلى محادثاتـه، وبمـا أنهـا قـد وجـدت حسـابه في الـ MSN مفتوحـا، فقـد انتهـزت الفرصـة ودققـت في كل المحادثـات وهـي في قمـة الصدمـة، فقـد وجـدت أن زوجهـا يخونهـا مـع الكثـير مـن الفتيـات، وعرفـت أن خياناتـه تعـدت مـن كونهـا إلكترونيـة إلى خيانـات حقيقيـة، وعرفـت أنـه كان يواعـد فتيـات أخريـات ويرسـل لهـن الهدايـا ويعيـش الحـب معهـن، وحينهـا أدركـت سـبب ذلـك الجفـاء الـذي يعاملهـا بـه، والرجـل لا يسـتطيع أن يجـافي زوجتـه لأن الرجـل مجبـول عـلى الغـزل، وإن توقـف عـن

مغازلة زوجته فهذا دليل قاطع على أنه يغازل فتاة أخرى، وإن توقف عن حب زوجته فهو بالتأكيد قد بدأ بحب امرأة أخرى، الرجل لا يتوقف عن الغزل والحب حتى يتوقف قلبه عن النبض، وهذا أمر كانت تدركه قدس جيدا، لكن شخصيته المتزنة وسلوكه السوي هما من جعلاها عمياء عن رؤية هذه الخيانات الصريحة والواضحة، وهنا عرفت أن الرجل يبقى رجلا، والفرق بين الرجل الداعر والرجل المهذب، هو أن الداعر لا يخاف من إظهار دعره عكس المهذب الذي يخفي ذلك ولا يري الناس سوى وجه ساذج لطيف!

فكرت قدس حينها في سيناريوهات عديدة، فحين يعود من عمله سيسألها أين هو الغداء فتخبره أنها لم تحضره وحين يسألها عن السبب تنفجر فيه غاضبة وتخبره أنها قد اكتشفت خياناته وأنه خائن لعين ثم تطلب الطلاق. لكن هذه الفكرة بدت لها فكرة غبية، فهو سيستفيد من الطلاق في أغلب الأحوال، سيطلقها اليوم ويتزوج غدا امرأة أخرى ويمضي في حياته سعيدا ناجيا بخياناته لها! فكرت في أن ترمي أمامه باكية، وتخبره أنها اكتشفت خياناته وتسأله عما قصرت بحقه، وتحاول معه أن يجدا حلا لهذه المشكلة، لكن هذا الأمر ضعف، وقدس ليست بالضعيفة، لذلك فقد فكرت بالسيناريو الثالث، ذلك السيناريو الذي تتقنه النساء المحطمات، النساء اللاتي تذوقن قساوة الحياة مما جعلهن يتأقلمن مع كل متغير، ويحاربن بكل ضراوة، دون أن يبدو ذلك على قناعهن المبتسم!

قالت قدس بكل حزم: «لن يؤنبني ضميري بعد الآن»، أتى سليم، تناولا الغداء معا، ثم خرج إلى العمل، بينما ذهبت إلى غرفتها واتصلت ببيدرو.

ـ «ألو، مساء الخير، كيف حالك؟»

ـ «ألو، مساء النور يا قدس، أنا بخير ماذا عنك؟»

ـ «مشتاقة إليك!»

ـ «انتظري قليلا، دعيني أتنفس، من هذه التي تكلمني؟ هل قدس معك؟ أخبريها أنني أريد الحديث معها!»

ـ «إنها أنا يا أيها الغبي! لقد اشتقت إليك منذ أن رأيتك ذاهبا آخر مرة، أردت أن أناديك أن ارجع إلي، لكنني لم أستطع ذلك، لقد حاربت ذلك الاشتياق بكل ما أوتيت من قوة، لكنني اكتشفت اليوم أنني لا أستطيع محاربة شيء أقوى مني!»

ـ «ماذا تريدين القول يا قدس، أنا لا أفهمك جيدا».

ـ « أريد القول أنني لا زلت أكن لك نفس المشاعر يا بيدرو، أنا لا أتوقف عن التفكير بك، وأريدك أن تعرف هذا جيدا!»

ـ «هل تعلمين ماذا تقولين يا قدس؟ أنت امرأة متزوجة».

ـ «أجل أنا متزوجة يا بيدرو، وقد أدركت بعد خمس سنوات أن الزواج عبارة عن ورقة يتعهد فيها الرجل أنه سيستعمر زوجته لبقية حياتها، وتتعهد فيها المرأة أن تبقى خادمة له! لا

حب في الزواج يا بيدرو، أفكارنا عنه خاطئة، خاطئة جدا! أنا أبحث عن الحب ولا أبحث عن الزواج، أحس أن زواجي حطمني، جعل مني آلة لغسل الصحون وطي الثياب، أنا امرأة، امرأة لها أحلام وطموحات، امرأة تستحق أن تحب بشغف! لن أكون أمة لهذا الزواج بعد الآن!»

أمضى بيدرو مساءه يكلم قدس، كان في قمة السعادة لأنه استرجع أخيرا حبيبة قلبه، أمضى العاشقان مساءهما وكل منهما يقص للآخر ما حدث خلال كل هذه السنوات، أحست قدس مجددا بالحياة تسري في جسدها، نعم إنه الحب! وهو الشيء الوحيد الذي يجعلنا نحس حقا أننا على قيد الحياة!

مرت أيام، وسليم يلاحظ تغير نفسية قدس، لقد صارت تضع مساحيق التجميل التي توقفت عن وضعها منذ أكثر من سنة، صارت تهتم بلباسها وتنظر إلى نفسها في المرآة مرات عديدة في اليوم، صارت تلتقط الصور لنفسها بصورة دائمة، صارت الابتسامة لا تفارق محياها، وزاد تعلقها بهاتفها أكثر من ذي قبل.

أدرك سليم أن هذه المرأة ليست المرأة التي تزوجها، إنها امرأة مختلفة تماما، لم يكن يحتاج إلى نسبة عالية من الذكاء والفطنة ليكتشف أن هنالك أمرا مريبا، قام بمداراتها، واستغل أول فرصة وضعت فيها هاتفها فقام بالتقاطه ودخل إلى الرسائل النصية القصيرة فوجد أنها قد محتها كلها، وهذا ما زاد شكوكه،

ذهـب إلى صورهـا، فوجـد هنالـك صـورا عديـدة لهـا بوضعيـات مثـيرة مـن المسـتحيل أن ترسـلها امـرأة لصديقتهـا، وبينـما هـو يبحـث في الصـور، حتـى أتـت رسـالة نصيـة مـن رقـم دولي مكتـوب فيهـا باللغـة الإسـبانية:

«para siempre Kods to promento devoy a amar hasta la muerte!»

قـام سـليم بترجمتهـا فـورا ليتفاجـأ بمـا أكـد شـكوكه: «أنـا أعـدك أننـي سـأحبك حتـما يـا قـدس حتـى المـوت!»

سـمعت قـدس صـوت الرسـالة النصيـة، فأتـت إلى الغرفـة كي تأخـذ هاتفهـا، فوجـدت سـليم يحملـه بيـده وينظـر إليهـا نظـرة لم ينظـر إليهـا مثلهـا قـط في حياتـه.

ـ «ماذا أيضا؟ هل أصبحت تتجسس على هاتفي؟»

ـ «كلا لقـد وجـدت رسـالة نصيـة مكتوبـة بالإسـبانية وتمنيـت لـو أننـي تعلمـت منـك قليـلا هـذه اللغـة الجميلـة».

ـ «دعنـي أرى!»، أخـذت الهاتـف وقـرأت الرسـالة وسـليم يراقـب ارتباكهـا، ثـم قالـت: «آه! إنهـا رسـالة مـن صديقتـي مونيـكا تسـألني عـن أحـوالي».

ـ «رسالة من صديقتك مونيكا تسألك فيها عن أحوالك؟»

ـ «أجـل رسـالة مـن صديقتـي مونيـكا تسـألني فيهـا عـن

أحـوالي!»

تقـدم سـليم نحوهـا، وقـام بصفعهـا بـكل مـا أوتي مـن قـوة، ترنحـت قـدس وسـقطت عـلى السريـر.

ـ «أتظنـين أننـي غبـي أيتهـا العاهـرة؟ ربمـا تغافلـت عنـك لبضعـة أشـهر، لكـن هـذا لا يعنـي أننـي لـن أعـرف إن كنـتِ تخونينـي أم لا! تقضـين أيامـك في التجمـل لهـذا الحقـير! تتبادلـين معـه رسـائل الحـب كامـرأة عزبـاء! ترسـلين لـه صـورا فاضحـة وكأنـك إحـدى سـاقطات الملاهـي! أتعلمـين شـيئا! الخطـأ ليـس خطـأك! إنـه خطئـي أنـا الـذي لم أسـمع كلام أبي، وتزوجـت مـن أكـبر عاهـرة مـن عاهـرات حانـات برشـلونة، وهـذا هـو جـزائي! تخونينـني في عقـر داري! أنـت محظوظـة لأننـي لم أذبحـك يـا بائعـة الهـوى! فأنـا لا أنـوي دخـول السـجن مـن أجـل فتـاة شـارع!»

ـ «شـكرا لـك يـا أيهـا المتقـي! شـكرا جزيـلا يـا أيهـا الـورع! أتظننـي كنـت سـأخونك لـولا اكتشـافي لخياناتـك المتكـررة لي؟ أتظـن أننـي لا أعلـم بعلاقاتـك الـلا شرعيـة خـارج إطـار الـزواج؟ أنـا أيضـا لسـت غبيـة يـا أيهـا الإمـام، لكـن خياناتـك لا شيء أمـام إهمالـك لي، وعـدم اعتنائـك بي! ألم تلاحـظ يـا أيهـا المبـشر بالجنـة أننـا انتهينـا؟ ألم تنتبـه أن علاقتنـا كانـت تحتـضر؟ نعم لقـد خنتـك! ولا زلـت أخونـك مـع رجـل آخـر، لأنـه يهتـم بي ويرعـاني ويـراني إنسـانة لا آلـة كـما تـراني أنـت! لـذا قبـل أن تحاسـبني عـلى خيانتـي لـك حاسـب نفسـك أولا يـا أيهـا الـوفي!»

ـ «هـل تقارنـين خيانـة الرجـل بخيانـة المـرأة! الرجـل يبقـى رجـلا ولـو خـان أو أخطـأ أو ارتكـب جرائمـا، لكـن المـرأة مقدسـة،

وخطؤها لا يغتفر! حينما تخون المرأة تصبح نجسة، وتستحق أن ترمى في القمامة، لقد صفعتك بيدي وسأقوم بغسلها فورا، لأنك حقا امرأة قذرة، وأنا أتقزز منك!»

ـ «تبا لعقليتك المتخلفة اللعينة يا أيها الرخيص! الخطأ خطأ سواء اقترفه رجل أو امرأة، وما كلامك سوى ذكوريتك المتخلفة التي ورثتها عن مجتمعك الغبي، وأقول ذكوريتك وليس رجولتك لأنني لا أرى الرجولة فيك إطلاقا! ولو كنت رجلا لما امتدت يداك على امرأة ضعيفة!»

ـ «اخرسي يا ساقطة! خذي ثيابك اللعينة واخرجي من منزلي! ستصلك ورقة الطلاق بعد أيام، أنا لا أتشرف بكوني زوجك، أنت عار علي!»

خرج سليم من المنزل وهو يحس بإحساس رجل تعرض للخيانة من طرف زوجته، ذلك الشعور المقرف الذي يجعل الرجل يحس بأنه طعن في عرضه وشرفه ورجولته، ذلك الشعور الذي يجعل الرجل يتوقف عن كونه إنسانا ليتحول إلى وحش ضار يؤذي كل من يقترب منه، ذلك الشعور الذي يميت قلب الرجل ولا ينتظر بعده سوى كفنا أبيض وقبرا مريحا!

أما قدس فقد بقيت في فراشها تنتحب باكية، لقد أدركت أن كل شيء قد انتهى ولم تجد من تشكيه همها سوى صديقتها أنفال، هذه الأخيرة التي أخبرتها أنها مخطئة وأن سليم هو المحق! أغلقت قدس الهاتف في وجهها وأخذت تصرخ: «يا رب

أنـا فتـاة ضعيفـة لا حـول لي ولا قـوة، لا أهـل لي ينصروننـي ولا مـكان لي ألجـا إليـه سـواك! أعنـي يـا رب فـإني في أمـس الحاجـة إليـك!»، وهكـذا نحـن البـشر، نقـوم بمختلـف المنكـرات والمعـاصي التـي نهانـا اللـه عنهـا، ومـا أن ندفـع ثمـن قيامنـا بتلـك المعـاصي حتـى نلجـأ إلى اللـه لـكي يسـاعدنا عـلى النجـاة منهـا، فـما أضعفنـا نحـن البـشر، ومـا أوقحنـا!

# الفصل الثالث:

## متلازمة مونخهاوزن بالوكالة

كان سليم يجوب رواق المستشفى جيئة وذهابا، والقلق مستبد به أيما استبداد، كان يعض تارة على يده وينظر تارة أخرى إلى السماء، تقدم إليه أحد الممرضين قائلا: «لا تقلق يا سيدي، جميعنا مررنا بهذه اللحظة»، ابتسم سليم في وجهه ابتسامة قلق، وأجابه: «إن شاء الله خيرا!»، لم يكن يعلم الممرض أن حالته وحالة سليم لا تتشابهان إطلاقا، سليم أيضا كان يعلم ذلك، لكن لا وقت لديه للحوار، فهو ينتظر الطبيب فقط، استمر في اضطرابه حتى خرج الطبيب من غرفة العمليات، كان وجهه أسود والتعب باد على ملامحه، سأله سليم بقلق: «طمئني يا دكتور أرجوك!»، نظر الدكتور بحزم نحوه وابتسم قائلا: «كانت العملية معقدة بعض الشيء لكنها كللت بالنجاح، مبروك عليكم الطفل!»

صرخ سليم بكل قوته: «الحمد لله!»، فأخيرا، وبعد ست سنوات من زواجه من قدس، رزقهم الله بمولود ذكر، تذكر سليم تضرعه الدائم إلى الله لكي يرزقه الذرية الصالحة، ولم يصدق أن الله قد استجاب له أخيرا، وتذكر مقولة إمام المسجد: «إن أبغض الحلال عند الله الطلاق، لن تخسر شيئا إن أنت سامحت زوجتك، فقد يجازيك الله على ذلك من حيث لا تحتسب!»، سجد لله قائلا: «الحمد والشكر لك يا الله، لقد جازيتني بأكثر مما

كنـت أتمنـاه!»، خـرج الممرضـون وهـم يجـرون سريـر قـدس المتحـرك، ذهـب إليهـا سـليم وأمسـك يدهـا بشـدة: «أنـا أحبـك يـا قـدس! لقـد صـار لدينـا ابـن! لقـد صـارت لدينـا عائلـة! أنظـري إليـه فمـه صغـير كفمـك!»، ابتسـمت قـدس قائلـة: «أجـل وعينـاه جميلتـان مثـل عينيـك!»

وهـذا هـو حـال الأزواج، فـما أن يرزقهـما اللـه بمولـود حتـى يقـول الرجـل لزوجتـه أن المولـود يشـبهها، بينـما تنفـي هـي ذلـك بقولهـا أنـه يشـبهه هـو، ويفعـل أهـل الزوجـين العكـس، فيجـزم أهـل الـزوج أن المولـود يشـبهه، بينـما يجـزم أهـل الزوجـة أنـه يشـبهها، وهـو في الحقيقـة لا يشـبه أيـا منهـما، فالمولـود الجديـد يشـبه إحـدى المخلوقـات الفضائيـة، بـرأس كبـير وشـعر في الوجـه!

أخـذ الزوجـان يتأمـلان ابنهـما في إحـدى الغـرف بالمستشـفى، سـعادتهما جعلتهـما ينسـيان كل مـا عصـف بعلاقتهـما، منـذ خيانتهـما لبعضهـما حتـى جلسـات المحاكـم وصـولا إلى عودتهـما مجـددا معـا بعـد مـا اكتشـفت قـدس أنهـا حامـل وبعـد تدخـل العديـد مـن فاعـلي الخـير الذيـن ذكروهـما بـأن انفصالهـما لـن يكـون في صالـح الابـن، وأنـه مـن الإنسـانية أن يتخليـا عـن أنانيتهـما ويحـاولا إنجـاح العلاقـة مـن أجـل ابنهـما، ورغـم أن الزجـاج المكسـور حتـى لـو جمـع وأعيـد تركيبـه فإنـه لـن يعـود كـما كان، إلا أنهـما اعتـادا التعايـش مـع تلـك الجـراح، وكانـت ولادة هـذا الطفـل بمثابـة ضـمادة جيـدة لجـرح قديم!

مضـت الشـهور والزوجـان منشـغلان بتربيـة ابنهـما، أيـن كانـا

يتناوبان على رعايته خاصة وأن كليهما يعمل، وحين اقترب اليوم الذي يطفئ فيه «سيف» شمعته الأولى، اتفق الأبوان على أن يأخذا يوم ميلاده إجازة كي يعدا له عيد ميلاد يبقى في ذاكرته، لكن فرحتهما سرعان ما تبددت حينما ارتفعت حرارة جسمه وظهر عليه طفح جلدي، أخذه أبواه بسرعة إلى المستشفى وبعد العديد من التحاليل قال لهما الطبيب بحيرة: «أنا حقا لا أعلم ما به، عليه أن يبقى في العناية المركزة!»

لم يثن مرض سيف والديه عن عزمهما، وأقاما له عيد ميلاد في المستشفى وسط فرحة كل الأطفال المرضى هناك.

بعد تعافيه رجع مجددا إلى البيت، قال سليم لزوجته: «آه كم أكره المستشفيات! أتمنى أن تكون هذه المرة الأخيرة التي ندخل فيها هناك، حتى الأطباء ليسوا أكفاء، لقد عالجوه وهم لا يعرفون حتى سبب مرضه، كيف لنا أن نتفادى المرض إن لم نعرف أسبابه!»، أجابته قدس: «معظمهم نجح في كلية الطب بالغش، لن أدعهم يلمسون صغيري بعد الآن!»

مرت الأسابيع، لكن أمنية سليم لم تتحقق، لقد كان سيف يدخل المستشفى على الأقل مرتين في الشهر، وفي كل مرة يجد الأطباء أعراضا مختلفة، يقومون بإجراء التحاليل، وبعلاجه لكن صعب عليهم معرفة أسباب مرضه، أصبحت حياة الزوجين جحيما، ألاّ يكون لديك ولد أرحم من أن يكون لديك ولد سقيم، يتقطع قلبك كل مرة حينما تراه مريضا، كانت قدس تمرض كلما

مـرض ابنهـا وهـذا مـا جعـل سـليم يحـس بالشـفقة اتجاههـما خاصـة وأنــه رب العائلــة.

وفي إحـدى الأيـام وبينـما كان سـليم في غرفـة الضيـوف منهمـكا بتركيـب إحـدى اللوحـات في السـقف، صرخـت قـدس قائلـة: «سـليم!»، قفـز سـليم مـن السـلم وهـرع يجـري إلى الغرفـة أيـن وجـد ابنـه يصـارع كي يتنفـس وقـدس تبـكي محاولـة أن تعطيـه نفسـا اصطناعيـا، اتصـل سـليم بسرعـة بالإسـعاف وأخـذاه إلى المستشـفى أيـن اسـتدعاهما الطبيـب المختـص بالأطفـال وأخـذ يطـرح عليهـما الكثـير مـن الأسـئلة ثـم ختـم كلامـه قائـلا: «المهـم في الأمـر أن ابنكـما في حالـة جيـدة الآن، لقـد تعاطـى جرعـة مـن دواء مضـاد للحساسـية وأريـد منكـما تفسـيرا لذلـك».

وضـع سـليم يديـه عـلى رأسـه قائـلا: «آه إنـه دوائي أنـا، لكننـي أضعـه دائمـا فـوق الخزانـة!» فأجابـه الطبيـب: «لا بـد أنـك وضعتـه الآن في بطـن ابنـك، ألم تقـرأ عبـارة لا يـترك في متنـاول الأطفـال؟»

رجـع سـليم وقـدس إلى المنـزل دون أن ينبسـا ببنـت شـفة، وحـين وصـلا إلى المنـزل بـدآ بالشـجار:

ـ «كل هـذا بسـبب إهمالـك يـا قـدس! أيـن كنـت حـين تعاطـى سـيف هـذا الـدواء؟»

ـ «إهـمالي أنـا! دواء مـن تعاطـى! أنـت مـن تركتـه لـه! أنـت مـن أهملتـه!»

ـ «لقـد قـال الطبيـب أنـه قـد تعاطـاه قبـل أربـع وعشريـن سـاعة،

وفي ذلك الوقت كنت بالعمل، أي أنك أنت من كنت تشاهدين المسلسلات أو تتحدثين مع حبيبك الآخر وتركت ابننا ليموت!»

ـ «ها هو يتكلم عن الموضوع مجددا! ألم نطو هذه الصفحة! لقد كان طوال الوقت معي، ولم أشاهده يضع شيئا في فمه».

ـ «إما أنك عمياء إذا أو أن التحاليل تكذب!»

ذهب سليم إلى غرفته وأغلق الباب بعنف، أما قدس فقد أخذت صغيرها وذهبت إلى الغرفة، كانت تحس بالضياع، أخذت تبكي بحرقة وهي تتذكر بيدرو، ذلك الشاب الجميل الذي أحبته وأحبها، والذي من المستحيل أن يؤذيها بأي كلمة، وقد أجبرها زوجها أن تتصل به وتجرحه بقولها أنها لا تحبه أبدا، وبأنها امرأة متزوجة ومن العار له أن يستغلها في لحظات ضعفها، وأنه عليه أن يمضي قدما في حياته وأن لا يتصل بها مجددا.

تذكرته، وتذكرت كيف أنه لم يؤذها يوما بكلمة جارحة، وأنه لم يفعل شيئا سوى أن أحبها بصدق، لكنها جازته بأن تلاعبت بمشاعره وهجرته مرتين.

وها هي الآن متزوجة برجل لا يقدرها، يلقي عليها اللوم دائما، يشتمها، وتتحمل كل ذلك لأنها لا تود أن تتفكك العائلة، أحست يوما أنها مريضة، لكن هذا الأمر لا يهم، فما يهم زوجها هو مرض ابنه وليس مرضها، هذا الابن الذي ظنت أنه سيكون شفاء لعلاقتهما لكن الواضح أنه فصلهما نهائيا

عـن بعضهـما البعـض، فصـار كلاهـما يهتـم بالطفـل وينـسى علاقتـه بالآخـر، نامـت قـدس تلـك الليلـة وهـي تتذكـر حياتهـا، لقـد رمتهـا أمهـا وعاشـت يتيمـة والحـزن يعتصرهـا، عانـت الأمريـن مـن تحرشـات الرجـال في مـكان عملهـا، تزوجـت رجـلا اكتشـفت في النهايـة أنهـا لا تحبـه، أنجبـت طفـلا قضـت معـه أيامهـا في المستشـفيات، أخـذت تفكـر قائلـة: «متـى أرى السـعادة يـا إلهـي؟ هـل كتبـت عـلي الشـقاء؟ أأعطيتنـي ابنـا لتسـعدني أم لتبتليني؟ لمـا لا ينتهـي هـذا الكابـوس؟ لمـا لا أسـعد كبقيـة النسـاء؟»

ـ كان سليم منشغلا بعمله حتى رن هاتفه:

ـ «ألو! من معي؟»

ـ «السيد سليم حساني؟»

ـ «أجل أنا هو، من المتصل؟»

ـ «نحـن إدارة المستشـفى، ابنـك هنـا عـلى مسـتوانا ونحـن نطلـب منـك الحضـور فـورا».

ـ «حسنا سأكون هناك بعد دقائق!»

تـرك سـليم مـكان عملـه واسـتأجر سـيارة أجـرة وذهـب بسرعـة إلى المستشـفى، كانـت لهجـة المتصـل غريبـة، بـل لنقـل مخيفـة نوعـا مـا، دخـل إلى المستشـفى وسـأل عـن ابنـه، فتـم إرسـاله إلى غرفـة الاسـتعجالات، أيـن وجـد ابنـه في السريـر ويـده ورجلـه ملفوفتـان بالجـير والضـمادات، تكلـم الطبيـب بغضـب: «سـيدي، ابنـك مصـاب بكسريـن في يـده ورجلـه، لقـد اضطـررت لأن أتصـل بالشرطـة، لا

أظـن أنكـما تعتنيـان بـه جيـدا!»

ـ «مـاذا تقـول! إنـه ابننـا! كيـف لا نعتنـي بـه! قـدس مـاذا حـدث!»

ـ «لا أدري لقـد كنـت أعـد الغـداء فسـمعت بـكاء، ذهبـت فوجدتـه قـد سـقط مـن السريـر!»، قالـت قـدس وهـي تبـكي بشـدة.

أظلمـت الدنيـا في وجـه سـليم لكنـه تمالـك غضبـه بينـما قـال الطبيـب:

ـ «في الحقيقـة يـا سـيدتي، لا تبـدو هـذه الكسـور قـد حدثـت جـراء سـقوط!»

ـ «ماذا تقصد يا دكتور؟» سأل سليم بحيرة.

ـ «أقصد أنه عليك أن تهتم بابنك أكثر يا سيدي!»

أتى المحققـون، وتـم اسـتدعاء الوالديـن في حجـرة أخـرى، بـدأ المحقـق بطـرح الأسـئلة عليهـما:

ـ «أيـن كنـت يـا سـيدي حـين أصيـب الطفـل؟ هـل تتعاطـى أي نـوع مـن المخـدرات؟ هـل هـذا الطفـل هـو ابنكـما الشرعـي؟ هـل لديـك يـا سـيدتي أو لـدى زوجـك أي ميـول للعنـف؟ هـل أطعمـتِ لصغـيرك أدويـة أضرت بصحتـه عمـدا؟ هـل يضربـك زوجـك؟ هـل لديكـما دخـل كاف لتربيـة طفـل؟ هـل عـانى أو يعـاني أي منكـما مـن أمـراض نفسـية أو عقليـة؟»

أجـاب الوالـدان بالنفـي عـلى كل تلـك الأسـئلة التـي طرحهـا

عليهما المحقق وهما في دهشة من غرابتها، قال سليم بغضب:

ـ «أسئلتك إهانة لنا يا سيدي! كيف يمكن لأبوين أن يؤذيا عمدا فلذة كبدهما بحق الجحيم!»

ـ «إنها إجراءات روتينية يا سيدي، وفي حالة تعرض الأطفال للأذى المتكرر، فدائرة الشبهة تمس كل المقربين من الطفل، ولا يوجد لدى الطفل سواكما يا سيدي!»

أكمل المحقق عمله ثم ذهب تاركا سليم في حيرة من أمره، فقد زرع فيه كلامه بذرة شك ملتهبة! أخذ يرتب الأحداث، وسبب مرض ولده المتكرر والذي لم يستطع الأطباء تفسيره، ثم نظر إلى قدس نظرة مريبة وهو يسأل نفسه قائلا: «هل يعقل أن تكون قدس هي من تؤذيه عمدا؟ لكن هذا مستحيل! فهي أمه! أمه التي لم تصدق أنها أخيرا سترزق بطفل! أمه التي صبرت تسعة شهور وهو في بطنها، وتحملت آلام الولادة، وكم كانت سعادتها حين رأته، فهو قطعة منها أكثر من كونه قطعة مني! هل يمكن لأم أن تؤذي ابنها! هل يمكن ذلك!»

ـ «قدس، صارحيني أرجوكِ، ماذا حدث؟»

ـ «لقد أخبرتك بما حدث».

ـ «لا تجيبيني ببرود أرجوك! ابننا يتأذى بلا سبب، ونحن لا نعلم شيئا، سنخسر ابننا بسببك أيتها المرأة المهملة! أجيبيني بصراحة: هل أنت من تؤذينه؟»

ـ «مـاذا تقـول! كيـف تجـرؤ عـلى قـول ذلـك! أنـت تتكلـم عـن ابنـي! فلـذة كبـدي! هـل تعلـم أننـي أتـأذى كلـما حـدث أمـر سيء لـه أكـثر مـما يتـأذى هـو؟ ألا تعـرف شـعور الأم؟ هـل أنـت مجنـون! كيـف تعتقـد بي هـذا! ربما تغافلـت اليـوم عنـه لأن الأمـر صعـب حقـا بـين أن أكـون امـرأة عاملـة وربـة بيـت في آن واحـد، وربما قـد أخطـأت بإبعـاده عـن ناظـري برهـة مـن الزمـن، لكـن لا تربـط الأحـداث ببعضهـا بهـذه الطريقـة المريعـة أرجـوك! أنـت تجرحنـي بشـدة! أنـا أتـألم يـا سـليم! أتـألم لأن ابنـي مريـض! أنظـر إليـه! لقـد سـقط بسـبب إهـمالي لـه وضمـيري يؤنبنـي بشـدة! أنـت زوجـي، وعليـك أن تقـف إلى جانبـي في المحـن والمصائـب، ألم نتعاهـد عـلى ذلـك يـا سـليم؟ أجبنـي! ألم نتعاهـد عـلى أن نكـون معـا في الـسراء والـضراء! لمـاذا تظلمنـي هكـذا إذا، كيـف تجـرح أمـا في ابنهـا وتتهمهـا بأنهـا هـي مـن تؤذيـه بينـما قـد تتـبرع بـكل أعضائهـا في سـبيل سـلامته! حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل فيـك يـا سـليم! حسـبي اللـه ونعـم الوكيـل!»

أخـذت قـدس تبـكي بشـدة، بينـما أحـس سـليم بالنـدم، ولام نفسـه كثـيرا لأنـه ظـن بهـا ظنونـا خاطئـة، قـال في نفسـه: «تبـا لي! كيـف قلـت لهـا كلامـا قاسـيا كهـذا؟ بـل كيـف فكـرت فيـه أصـلا! يـا لي مـن غبـي!» ثـم نظـر إليهـا وقـال: «أنـا آسـف يـا حبيبتـي، لكـن منظـر ابنـي هكـذا يؤلمنـي حقـا! لا تخـافي سـنجتاز هـذا معـا، وسـتكون هـذه الحادثـة درسـا لكلينـا، لا تبـكِ يـا روحـي، أنـا معـك!»

سـامح سـليم قـدس مجـددا عـلى إهمالهـا لسـيف، فهـي في

الأخير تبقى زوجته وأم ابنه، ويجب عليه أن يوجهها لا أن يقمعها، سامحها مجددا، لكن القانون لم يسامحهما، فقد رفعت إدارة المستشفى ضدهما قضية إهمال وضرب وتعنيف متكرر لابنهما ووجدا نفسيهما بعد أيام في قاعة المحاكمة.

لم يكن القاضي متسامحا معهما، وبعد عدة جلسات عرف الوالدان أن ابنهما سيؤخذ منهما إلى مصلحة حماية الطفولة، فتقارير الأطباء تؤكد تعرض الطفل للأذى العمدي المتكرر من طرف مجهول، وحين تأكدت قدس أن طفلها الوحيد سيؤخذ منها إلى الأبد قالت للقاضي في إحدى الجلسات:

ـ «سيدي القاضي أريد أن أعترف لك بشيء، لكنني أود حماية».

ـ «حماية من من يا سيدة؟»

ـ «من الشخص الذي يؤذي ابننا، فهو سيقتلني إن أنا اعترفت».

ـ «لديك الحماية القانونية الكاملة يا سيدتي، تكلمي».

نظر سليم إلى زوجته بحيرة، وهو مندهش كيف أنها لم تخبره أن هنالك من يؤذي ابنهما، لم يستطع أن ينبس ببنت شفة، وأخذ يراقب قدس وهي تتقدم لتدلي باعترافها.

ـ «سيدي القاضي، منذ ولادة طفلي الصغير وأنا ألاحظ عليه آثار كدمات في كامل أنحاء جسمه، لكنني لم أعر للأمر انتباها كبيرا لأنني

ظننتها للوهلة الأولى آثار حساسية عادية تصيب الرضع حديثي الولادة، وما إن بدأت سلسلة أمراض ابني خاصة حينما أخبرنا الطبيب في المرة الأخيرة أنه تناول دواء الحساسية الذي يتعاطاه زوجي بدأت الشكوك تغمرني، وحين واجهت زوجي بالأمر قام بالصراخ علي وضربني كما يفعل دائما قائلا أنه ابنه ويحق له أن يفعل به ما يشاء، هددني إن أنا أخبرت الشرطة فسيوقع بي ويجعلهم يأخذون ابني مني، وبما أنني أعلم أنه عنيف وقد يقتل كلينا، فقد التزمت الصمت خوفا وضعفا، أما بالنسبة لقضية كسره فالأطباء محقون، لقد جن جنونه ذلك اليوم وقام بضربي ثم اتجه إلى ابننا وضربه بعمود فولاذي في يده ورجله، وهددني بأن يقتلني إن أنا أخبرت الشرطة، ثم ذهب إلى العمل، وحينما وجدت أن ابني قد تأذى كثيرا، أخذته إلى المستشفى وادعيت أنه قد سقط، لكن في الحقيقة زوجي من ضربه، إنه يؤذي ابني دائما يا سيدي القاضي، وقد قمت بتسجيل كلامه وهو يهددني ويسبني ويشتمني وسأعطيه للمحققين اليوم، لكن أرجوك يا سيدي القاضي، أنقذني من هذا الوحش أرجوك! أبعده عني! سيقتلني ويأخذ ابني مني!»

أخذت قدس تبكي وتنوح وسط تعاطف كل من في القاعة واشمئزازهم من هذا الوحش البشري! أما سليم فقد صعق لسماعه كلامها ولم يقو على الحركة ولا الكلام! قام القاضي بتأجيل الجلسة حتى يتم النظر مجددا في الوقائع والدليل الجديد، وأعطى أمرا بإبعاد المتهم عن الضحية إلى حين انتهاء التحقيق.

وبعد العديد من الجلسات الأخرى ودموع قدس وحبكاتها الدرامية المتقنة، ومع نقص الأدلة المدينة لكليهما، تم إدانة سليم

مـع إعطـاء الوصايـة عـلى الطفـل لـلأم بعـد قضيـة طـلاق رفعهـا مبـاشرة سـليم ضدهـا بعـد اعترافاتهـا الصادمـة. كانـت قـدس في قمـة السـعادة، فطلاقهـا مـن سـليم لا يهمهـا الآن مـا دام ابنهـا معهـا، «ليذهـب إلى الجحيـم» قالـت بسـعادة وهـي تحتضـن ابنهـا.

أمـا سـليم فقـد اكتشـف أنـه تـزوج الشـيطان ذاتـه، واحتـار كيـف أنـه لم يكتشـف شـخصيتها الحقيقيـة قبـلا، كيـف لم يكتشـف أنهـا امـرأة شريـرة ومريضـة نفسـيا؟ كيـف تمكنـت مـن خداعـه طيلـة هـذه السـنوات؟ تذكـر كلامهـا حـين قالـت لـه: « الـزواج دون رضى الوالديـن زواج لا معنـى لـه وغـير مبـارك مـن عنـد اللـه» وأدرك أنهـا ربمـا تكـون الجملـة الوحيـدة الصحيحـة التـي قالتهـا لـه منـذ التقيـا، وأدرك أيضـا أنـه أخطـأ حـين تـزوج دون مباركـة والديـه وأغضبهـما، وهـا هـي النتيجـة فقـد فقـدَ في الأخـير زوجتـه وابنـه إلى الأبـد، بسـبب زواج رفضـه الوالـدان، والوالـدان لا يرفضـان شـيئا يريـان فيـه الخـير لابنهـما!

قضـت قـدس أيامهـا في رعايـة ابنهـا، وهـي تسـتمتع بمشـاهدته وهـو يكـبر، لم يمـرض ابنهـا مجـددا، ولم يصـب بكسـور أو كدمـات، وهـذا مـا جعـل الجميـع يصـدق أن سـليم هـو مـن كان يؤذيـه، كان الجميـع يهنئهـا عـلى طلاقهـا مـن زوجهـا، ويتعجـب مـن قوتهـا وكيـف اسـتطاعت أن تتحمـل كل تلـك المعانـاة لسـنوات، كانـت تجيبهـم أنهـا قـد تفعـل أي شيء مـن أجـل ابنهـا، فهـو فلـذة كبدهـا وأملهـا الأخـير في الحيـاة، ووجـوده يهـون عليهـا كل المصائـب الأخـرى، أصبحـت قـدس معروفـة بـين جيرانهـا وفي الثانويـة بالمـرأة القويـة المكافحـة،

وصـار الجميـع يـضرب بهـا المثـل في الأمومـة المثاليـة!

**********

وصـل سـيف إلى سـن السادسـة، فأدخلتـه أمـه إلى مدرسـة ابتدائيـة، كان طفـلا ذكيـا وسـيما، وبـرز نبوغـه منـذ السـنة الأولى، كان فصيـح اللسـان سريـع البديهـة، وهـذا مـا جعلـه دائمـا يحتـل المرتبـة الأولى في القسـم، كان يحـب الدراسـة، لكنـه لم يحـب زمـلاءه المتشـابهين ومعلماتـه المتشـابهات، لقـد سـألتهم الأسـتاذة مـا هـي المهنـة التـي يرغبـون بهـا في المسـتقبل فكانـت إجاباتهـم متشـابهة: مهنـدس، قبطـان طائـرة، طبيبـة!

ـ «أريد أن أكون فنانا!»

نظـر الجميـع إليـه بدهشـة، بينـما ضحكـت المعلمـة قائلـة: «يجـب أن تكـون أحلامـك كبـيرة يـا بنـي كي تكـون ناجحـا، كأحـلام زملائـك مثـلا».

لم يسـتطع سـيف اسـتيعاب كلامهـا، كيـف يكـون حلمهـم كبـيرا وحلمـه صغـير؟ لقـد رأى المهندسـين وقباطنـة الطائـرات والأطبـاء ورأى حياتهـم وسـأل نفسـه إن كان العمـل في مجـال الهندسـة والطـيران والطـب يعتـبر نجاحـا؟ هـل الشـخص الـذي يصمـم القطـع الحديديـة ثـم يتـزوج وينجـب أبنـاء ثـم يمـوت يعتـبر شـخصا ناجحـا؟ مـا الفـرق بـين قيـادة طائـرة أو سـيارة أجـرة في وقـت صـارت فيـه الطائـرة وسـيلة نقـل عاديـة؟ هـل مـن يقـضي حياتـه في المستشـفيات

يـداوي هـذا ويقتـل ذاك يعتـبر ناجحـا في حياتـه؟ مـا هـو مفهـوم النجـاح عندهـم؟

لقـد أدرك سـيف في سـن صغـيرة أن مفهـوم النجـاح لديـه يختلـف عن مفهومـه لديهـم، فهـو يـرى أن جميـع النـاس فاشـلون مـا لم يسـمع العـالم عنهـم وعـن إنجازاتهـم، مـا لم يذكـروا بعـد موتهـم أبـدا، مـا لم يتركـوا أعـمالا تخلدهـم! النجـاح ليـس متعلقـا بمهنـة محـددة، فقـد ينجـح أي شـخص في أي عمـل ويصـير مشـهورا إن هـو أحـب ذلـك العمـل واجتهـد فيـه، عـرف سـيف في سـن صغـيرة أنـه يجـب عليـه أن يختـار المهنـة التـي يحـب لـكي ينجـح فيهـا، لأنـه لـو اختـار تلـك المهـن التـي يظـن المجتمـع أنهـا ناجحـة فسيفشـل حتـما فشـلا ذريعـا حتـى ولـو اعتـبره المجتمـع ناجحـا، مـادام النجـاح في بلداننـا العربيـة هـو الحصـول عـلى عائلـة وبيـت ومعـاش تقاعـد!

كان سـيف يحـب الفـن، ويـرى الدنيـا بعـين الفنـان، ومـن رأى الدنيـا هكـذا فسـيراها مختلفـة جـدا، وسـيرى نفسـه مختلفـا وسـط مجموعـة مـن الحمقـى المتشـابهين، وهـذا مـا يخلـق في نفسـه نزعـة للبقـاء وحيـدا والتلـذذ بتلـك الوحـدة.

كان يـدرس بالسـنة الثانيـة مـن التعليـم الابتـدائي حينـما طلبـت منـه المعلمـة أن يكتـب الـدرس عـلى السـبورة لأن خطـه ممتـاز بالنسـبة لطفـل في سـنه، بـدأ سـيف بالكتابـة، لكـن الأسـتاذة لاحظـت أن خطـه رديء وصـار يكتـب بصعوبـة، سـألته قائلـة:

ـ «ما بك يا بني تكتب هكذا؟ هل أنت مريض؟»

ـ «كلا يا أستاذتي، يدي فقط تؤلمني قليلا».

ـ «ما بها يدك؟»

ـ «لا....لا شيء، سأحاول أن أكتب بخط جيد».

ـ «تعال يا بني، أريد أن أرى يدك».

تقدم سيف نحو الأستاذة بخطوات مترددة، مما زاد شكوكها فنهضت من مكتبها واقتربت منه وقامت بثني قميصه لتكشف عن ساعده، وما أن رأت مرفقه حتى صرخت قائلة:

ـ «من فعل بك هذا!»

ـ «أقسم بالله أنها ليست أمي! اتركيني أرجوك سوف أتعافى!»

ـ «هل أمك هي من ضربتك هكذا!»

ـ «كلا! أمي لا تضربني أبدا! أنا هو الفتى السيء غير المطيع، أمي لم تضربني!»

ـ «حقا! سأخبر المدير حالا!»

ـ «أرجوك لا تفعلي! ستقتلني أمي لأنها ستظن أنني أنا من أخبرتك أنها ضربتني، لقد قالت لي أن عظامي هشة لذلك ازرق مرفقي، وسأتعافى بعد أيام، لا تخبري المدير أرجوك يا أستاذة!»

أخذت الأستاذة بالبكاء شفقة على هذا الطفل المسكين الذي يخاف أن يخبر الناس أن أمه تضربه كي لا تفعل به ذلك

مجـددا، قامـت فـورا بإخبـار المديـر الـذي اسـتدعى قـدس في اليـوم التـالي وسـألها قائـلا:

ـ «هـل علمـت يـا سـيدتي أن يـد ابنـك زرقـاء، وأنـه قـد تعـرض للـضرب؟»

ـ «آه أجـل، لقـد عرفـت ذلـك بعـد أن عـاد مـن المدرسـة، لقـد أخـبرني أن أحـد الأطفـال ضربـه بقضيـب حديـدي، لكنـه لم يتمكـن مـن معرفتـه».

ـ «ولما أخبر المعلمة إذا أنك أنت من قمت بضربه؟»

ـ «عفـوا! هـل تمـزح يـا سـيدي؟ أنـا أمـه ولسـت زوجـة أبيـه، إنـه فلـذة كبـدي، لقـد ظننـت أنكـم عرفتـم مـن ضربـه لذلـك اسـتدعيتموني، هـا هـو أمامـك اسـأله».

ـ «سيف، تكلم بلا خوف، من قام بضربك؟»

ـ «إنـه أحـد الأطفـال يـا سـيدي، لقـد قـام بـضربي وهـرب، ولم أتعـرف عليـه».

نظـر المديـر إلى قـدس مليـا ثـم قـال: «أنـا آسـف يـا سـيدتي، سـنبحث في الأمـر، إنـه سـوء تفاهـم فقـط، نعـدك أننـا سـنجد الفاعـل وسـنحرص عـلى أن ينـال عقابـه».

رجعـت قـدس وابنهـا إلى المنـزل، ومـا إن أغلقـت البـاب حتـى قـال لهـا سـيف خائفـا: «أقسـم لـك يـا أمـي أنـني لم أخبرهـا، لقـد اكتشـفت ذلـك

وحدها».

ـ «كف عن الكلام وأذهب إلى غرفتك وأحضر لي الحزام».

ذهب سيف ليحضر الحزام والخوف يتملكه، وما أصعب ذلك الشعور حين يحضر العبد بنفسه السوط الذي سيأكل لحمه ويعطيه بيديه للجلاد، إنه عذاب نفسي يفوق مئات المرات العذاب الجسدي الذي سيناله بعد ذلك!

رفعت قدس السوط بيدها وأخذت تضرب ابنها بكل قوتها، كان صوت احتكاك الحزام بالهواء وهو متجه بقوة نحو لحم سيف الغض مرعبا أكثر من الضرب نفسه، أخذت تضربه قائلة: «هل هكذا ربيتك يا ابن الزنى! تشي بأمك عند الكلاب! أنا أضربك لأؤدبك لا غير! أريد أن أربيك كي تكون رجلا لكنك تأبى إلا أن تكون وغدا كأبيك! لا بد أن دماءه السافلة تمشي في عروقك ولا بد أن أخرجها منك بهذا الحزام اللعين! أظنك تحمل دماء جدتك الساقطة أيضا يا أيها الوغد! اخرس! اخرس ولا تبك! فالبكاء للمخنثين!»

ـ «أقسم لك يا أمي أنها هي من اكتشفت ذلك وحدها حين رأت ساعدي، توقفي عن ضربي أرجوك! أنت تؤلمينني كثيرا».

ـ «أششششت! أسكت ولا تبك! لن أتوقف عن ضربك حتى تغلق فمك اللعين وتتوقف عن البكاء!»

أغلق سيف فمه بيده وهو يكتم صراخه وبكاءه أملا في أن

تتركه أمه وشأنه، كان يحتمل ذلك الألم الجسدي والنفسي أملا في انتهاء ذلك الرعب الشديد، تركته أمه مضرجا بدمائه وذهبت إلى غرفتها وهي تسبه وتلعن أباه وتلعن اليوم الذي تزوجته فيه.

نظر سيف إلى النافذة، أخذ يفكر في كيفية إنهاء حياته، تخيل لو أنه صعد فوق ذلك السرير الذي بجانب النافذة وقام بفتحها على مصراعيها، وصعد على حافتها والرياح تداعب ثيابه، لو أنه نظر إلى الأسفل ليرى الناس في غدو ورواح، سأل نفسه مرارا إن كان يملك الشجاعة الكافية لفعل ذلك، لرمي نفسه من النافذة! أين سيفقد الإحساس بالزمان والمكان وهو يسقط مباشرة نحو الأرض حتى يرتطم رأسه الغض بسطحها القاسي فتتناثر أجزاء جمجمته على التراب ومعها أجزاء من دماغه الذي لا يشبه أدمغة الآخرين، سيسيل الدم ويلطخ أرض الجزائر من جديد، لكن هذه المرة ليعلن نهاية حياة قاسية لم يحتملها، وليضع حدا لهذا العنف الذي نعيشه من أوليائنا في صغرنا ليترك في أنفسنا ألما على المدى الطويل، ألما لا نتخلص منه حتى نوارى التراب، وما أشد حاجتنا حقا إلى ذلك اليوم!

اقترب سيف نحو النافذة، نظر من زجاجها نحو الشارع، رآه بعيدا جدا، وهنا عرف الجواب على سؤاله: هو لن يمتلك الشجاعة لفعل ذلك أبدا!

أصبح الضرب شيئا معتادا عند سيف، فقد اعتادت قدس أن تضربه حين يحتل المرتبة الثانية بين زملائه، أو حينما يحتل المرتبة الأولى بمعدل أقل مما كانت ترجو!

وقد عرفت الأم بعد سنوات أن سياستها فاشلة حينما بدأت علامات سيف بالتدهور بعد أن وصل إلى سن المراهقة.

سن المراهقة هي أصعب مرحلة في حياة الإنسان، وهي السن التي يتخذ فيها معظم الشباب قراراتهم المصيرية التي تؤثر على بقية حياتهم، ولا بد للآباء أن يعدوا أبناءهم لهذا جيدا في طفولتهم ليستطيعوا التحكم بهم حين ولوجها ليوصلوهم إلى بر الأمان من جهة ولكي لا يرتكبوا الأخطاء نفسها التي ارتكبوها من جهة أخرى.

أصبح سيف شابا طويلا قوي البنية، ولم يعد باستطاعة أمه ضربه، انتقل فجأة من الرضوخ الشديد إلى الثورة على كل شيء، توقف عن مراجعة دروسه، أصبح عنيفا مع زملائه، مع معلميه، مع جيرانه، صار لا يدخل البيت إلا في وقت متأخر من الليل، وإن فكرت أمه أن تسأله فقط عن سبب تأخره، انفجر فيها قائلا أنه لا دخل لها وأغلق الباب في وجهها بقوة.

لم تدرك الأم أنها فشلت في تربية ولدها إلا حينما قامت في إحدى المرات بضربه بأنبوب بلاستيكي، فقام بنزعه من يدها وصفعها بقوة فسقطت أرضا، تقدم نحوها ونظر إليها نظرة شديدة قائلا: «إياك أن تضعي يدك علي مجددا أيتها الساقطة الحقيرة! لا دخل لك فيما أفعله من اليوم وصاعدا! هل تريدينني أن أدخل السجن؟ حسنا إذا! ضعي مجددا يدك القذرة على جسمي وسأحرص على أن تموتي بعد أيام من التعذيب الذي ستنالينه مني! أتعلمين كم أخجل لأنني ابنك؟

هـل تدركـين كـم أحتقـرك وأزدريـك؟ سـأتحصل عـلى شـهادة البكالوريـا، وسـأهجرك كـما هجـرك أبي!»

قـضى سـيف أيـام الثانويـة مـع رفقـاء السـوء، كان كثـير الغيـاب عـن الحصـص الدراسـية، يقـضي أوقاتـه في تعاطـي المخـدرات لـكي يخفـف ألمـه، ألمـه الـذي زرعتـه فيـه قـدس منـذ كان رضيعـا، كان لا يحـس بالراحـة إلا حينـما يضـع ورقـة تبـغ في يـده ويقـوم بفتـح سـيجارة ليضـع تبغهـا عـلى الورقـة ويضيـف لـه قطعـة مـن «الكيـف المعالـج» يقـوم بـذره ليختلـط مـع التبـغ ثـم يقـوم بلـف سـيجارة المخـدرات جيـدا وتثبيتهـا بواسـطة لسـانه، يجـري عليهـا بعـض التعديـلات لتبـدو جميلـة ويقـوم بإشـعالها، ثـم يأخـذ النفـس الأول، ذلـك النفـس الـذي يجعلـه يشـعر بـشرارة كهربائيـة تـسري في دماغـه وبـبرودة وانتعـاش في رئتيـه... ذلـك النفـس الـذي ينسـيه أنـه تعـرض لـلأذى مـن أقـرب النـاس إليـه، مـن الأم التـي قيـل أن الجنـة تحـت أقدامهـا، لكـن في حالتـه كان هـو «الجنـة» وهـي لم تتـوان في أن تركلـه مـرارا وهـو تحـت أقدامهـا يطلـب الرحمـة والمغفـرة عـلى أمـور لم يقترفهـا!

كانـت المخـدرات علاجـا طبيعيـا لمريـض مثلـه، فهـو لم يسـتطع أن ينـسى ماضيـه التعيـس، وكيـف لـه أن ينـسى يـوم خـرج مـن المدرسـة الابتدائيـة بسرعـة كـما يخـرج الأطفـال مـن مدارسـهم، كان يجـري لأن زميلتـه «فاطمـة» تلاحقـه، وفجـأة سـمع صـوت إطـارات سـيارة تحتـك بـالأرض، اسـتدار لـيرى سـيارة مـن نـوع «كليـو» تتجـه إليـه، لم يفهـم شـيئا وهـو يـرى نفسـه في الأرض والدمـاء تسـيل

منه من كل جهة، أراد أن يتكلم فأحس بلكنته قد تغيرت، تفقد أسنانه فلم يجد أيا منها، كان الصخب شديدا والناس يحملونه، يتجاذبونه من كل جهة، أحس بالخوف الشديد، كانوا يريدون أن يضعوه في السيارة ليأخذوه إلى المستشفى، كيف كان ليدرك ذلك مع صغر سنه؟ لقد ظن أنهم ينوون خطفه فهرب بسرعة، كان يجري والدماء تلطخ ثيابه، بكى كثيرا، أحس بالقهر، دخل إلى المنزل خلسة وتسلل نحو الحمام، كان يريد أن يغسل تلك الدماء قبل أن تكتشف أمه ذلك، لأنها لو فعلت فستبرحه ضربا من جديد، وهو طفل سئم الإحساس بالألم!

كانت قدس في غرفة الطعام مع صديقة لها تدعى «صفية»، صرخت صفية قائلة: «قدس! لقد مر ابنك لتوه نحو الحمام وهو ملطخ بالدماء هل رأيته!»

كان سيف يغسل فمه، أين أتت صفية وأخذت تنظف الدم الذي يلطخ وجهه وثيابه وهي تبكي ألما على منظره، سألته عما حدث له والدموع تنهمر منها فأجابها أن سيارة قد صدمته وحطمت أنفه وأسنانه وأنه قد هرب لأنهم أرادوا خطفه، احتضنته صفية قائلة: «لا تخف يا ولدي! سيكون كل شيء على ما يرام!» أما قدس، فقد نظرت إليه قائلة: «أنت تستحق ذلك! لطالما أخبرتك أن تنتبه حين تقطع الطريق، لكنك لا تسمع الكلام، حين تشفى سأجعلك تدفع الثمن غاليا!»

كيف لسيف أن ينسى يوم كان يصرخ من الألم، لكن قدس

رفضت أن تأخذه إلى المستشفى إلا حينما رأت أن لونه قد تغير تماما، وحين أخذته إلى مستشفى «بني مسوس» هرع به الأطباء مباشرة إلى غرفة العمليات، أين اكتشفوا أن زائدته الدودية قد وصلت إلى أعلى درجات الالتهاب إلى درجة أنها انفتحت وسالت كل محتوياتها السامة داخل بطنه، لقد قالت لها الطبيبة الجراحة يومها أنها لو تأخرت نصف ساعة فقط عن إحضاره لكان قد توفي حتما.

تم وضع سيف بعدها في غرفة الإنعاش، لقد تذكر أن جميع أقربائه قد زاروه، لكن أمه لم تكن من الأوائل، سألته عاملة النظافة عن أمه فأخبرها أنها بعيدة وستأتي بعد أيام، لأنها لن تصدقه حتما لو أخبرها أنها في عرس صديقة لها!

لذلك فالمخدرات كانت جيدة جدا بالنسبة له، هي لم تجعله ينسى فقط، بل جعلته يحس بالسعادة حينما يتذكر تلك اللحظات التعيسة، وهكذا هي المخدرات، تجعلك تعلم أنك في حالة سيئة لكنك سعيد رغم ذلك، تأثير المخدرات على الحس شبيه بإحساس القرويين البسطاء الذين لا يملكون شيئا وحياتهم قاسية، ورغم ذلك تجدهم دائما مبتسمين، تأثيرها شبيه بالإنسان الفاشل الذي لديه ثقة زائدة بالنفس تجعله يظن نفسه ناجحا! تأثيرها أشبه بالناس العاديين الذين يشعرون بالسعادة لكونهم عاديين بدل الشعور بالأسى على أنفسهم!

هكذا كانت حياة سيف، إلى أن اجتاز شهادة البكالوريا ونجح

فيها، ليس بجده واجتهاده، وإنما بذكائه وثقافته الواسعة، وبذلك حمل في يده التذكرة التي طالما حلم بها، تذكرته التي ستجعله يودع قدس وذكرياته البائسة معها، تذكرته التي ستجعله يغادر الجزائر، هذا البلد الذي تألم فيه كثيرا أكثر مما يطيق، تذكرته التي ستجعله يزور الدولة الوحيدة التي طالما أحس أنه يشبه كثيرا سكانها ويتمنى أن يكون فردا منهم، أنا أتكلم عن الدولة الأكثر اكتظاظا بالسكان بين الدول الناطقة بالإسبانية في العالم، الدولة التي تحوي أكبر حلبة مصارعة ثيران في العالم، الدولة التي تحتل المراتب الأولى في تجارة المخدرات والأسلحة والأعضاء البشرية، ألا وهي الولايات المتحدة المكسيكية!

بدأ سيف بإعداد جواز سفره، كان يستخرج الوثائق الإدارية اللازمة لذلك، كان يبحث عن قلم ليملأ إحدى الاستمارات، لكنه لم يجد شخصا يعيره إياه، سأل أحد المارة عن أقرب مكتبة ووراقة فأرشده إليها، دخل إليها وألقى التحية ثم طلب قلما أسود.

ـ «أي ماركة تريد يا سيدي؟»، قالت البائعة.

ـ «لا يهم، أريد قلما أسود فقط».

ـ «بأي ثمن تريده يا سيدي».

ـ «لا يهم، أريد قلما فقط».

ـ «من أي علبة تريده يا سيدي؟»

ـ «قلت لك لا يهم! أعطني قلما لعينا أو دعيني أبحث عن محل آخر!»، قال سيف بصوت مرتفع وهو ينظر بضجر إلى

هـذه الفتـاة المزعجـة.

ابتسـمت البائعـة وقالـت: «لا بـد أنـك تعـاني مـن القلـق يـا سـيدي، هـل أنـت مريـض نفـسي؟ هيـا اعـترف! لقـد قـرأت في إحـدى المجـلات عـن مشـكلة عـدم القـدرة عـلى التحكـم بالغضـب وتعلمـت بعـض حصـص الـ Anger management، هيـا افعـل مثـلي، شـهيق، زفـير، شـهيق، زفـير!»

نظـر سـيف بدهشـة إلى هـذه الفتـاة الغريبـة، فوجـد نفسـه أمـام فتـاة في سـن المراهقـة، متوسـطة الطـول ببـشرة بيضـاء وعينـين صغيرتـين، كانـت تبـدو فتـاة بسـيطة مـن لباسـها، أجابهـا قائـلا:

ـ «سـيدتي أنـا أبحـث عـن قلـم، ولا أبحـث عـن دروس للتحكـم بالغضـب».

ـ «أنـت تحتـاج لهـذه الـدروس أكـثر مـن احتياجـك إلى القلـم، هيـا يـا سـيدي تمـرن معـي، دروس كهـذه يدفـع النـاس مـن أجلهـا أمـوالا طائلة.....حسـنا حسـنا لا تذهـب! أنـا آسـفة! كنـت أمـزح فقـط، هـا هـو قلمـك اللعـين!»

أخـذ سـيف القلـم وخـرج مـن المحـل وهـو مندهـش مـن هـذه الفتـاة الغريبـة، قـام بإكـمال ملفـه ورجـع إلى منزلـه، لكـن تلـك البائعـة لم تغـادر ذهنـه، فقـد كانـت جالسـة بجانبـه في مقعـد الحافلـة، سـمع صوتهـا في جميـع الأغـاني التـي سـمعها، رآهـا في الملعقـة التـي أكل بهـا طبـق «التليتـلي» الـذي يعشـقه، وشـاهدها وهـي تذيـع

الأخبار في القنوات الإخبارية وتمثل في القنوات التي تعرض الأفلام، وفي الليل، أبت أن تبرح غرفته، لقد جلست في مكتبه وهي تنظر إليه بنظرة ساخرة وتحاول أن تلقنه كيفية التحكم بغضبه، سألته قدس: «ما بك تبتسم وحدك يا بني؟ أما زلت تتعاطى المخدرات؟»، تذكر سيف أنه نسي أن يتناولها اليوم، فقد تعاطى مخدرا من نوع آخر لم يره في حياته، إنه مخدر «الفتاة المختلفة»، الفتاة التي لا تشبه الأخريات، الفتاة التي تتشاجر معها دائما ثم تذهب مبتسما، لأنك تعلم أنك أمام فتاة غير عادية، فتاة قد تبث في ميتتك الحياة، فتاة ستجعلك إنسانا من جديد!

قضى سيف ليلته وهو يخطط ليوم غد، وماذا عليه أن يفعله، واهتدى في الأخير إلى رسم برنامج ضخم مكثف: لا بد أنه أضاع قلمه، وعليه أن يذهب إلى المحل مجددا لاقتناء قلم جديد!

في الغد، لبس سيف حذاءه الرياضي الذي اشتراه منذ شهر لكنه لم يجد داع لكي يلبسه، واختار بعناية سروال الجينز الذي يتماشى مع ذلك الحذاء، قام بالبحث عن قميص يبرز عضلاته ويجعله يبدو رياضيا، قضى نصف ساعة أمام المرآة وهو يغير تصفيفات شعره، كانت أمه تنظر إليه مبتسمة وهي ترى ابنها أخيرا معجبا بفتاة ما.

سألته عن المناسبة التي جعلته يعتني بنفسه أكثر من المعتاد

فأخبرها أنه يود زيارة صديق قديم له، خرج سعيدا مزهوا بنفسه وهو يظن أنه خدع أمه، وهكذا نحن، دائما ما نكذب على أوليائنا أكاذيب ساذجة نظن أنها تنطلي عليهم ونحن لا نعلم أنهم عاشوا ما عشناه وحفظوا ما درسناه، وأن حِيَلَنا أشبه بحيل طفل صغير يختفي وراء ستار النافذة ويقول لأهله أنه مختف وغير موجود!

خرج سيف من المنزل وعطر «One million» يسبقه بأمتار، دخل إلى المكتبة دخول غير المهتم، وقال للبائعة: «سيدتي، أريد قلما أسود من صنع bic بثمن 30 دج من العلبة الصفراء يمين العلبة الرمادية في الرف الثالث».

ـ «الرف الثالث جهة اليمين، أم الرف الثالث جهة اليسار يا سيدي؟»

ـ «أريد تمارين لعلاج القلق، ومخدر مورفين لعلاج الغضب، وجهاز صاعق كهربائي في حالة سكتة قلبية».

ضحكت الفتاة قائلة: «جهاز كهربائي طبي أم جهاز كهربائي حربي؟»

ضحك سيف بشدة، وأخذ يتجاذب أطراف الحديث معها، وجد نفسه أمام فتاة بسيطة عفوية، تتكلم دون أن تهتم لرأي الناس، فأغلبية الفتيات يتصنعن حينما يتكلمن مع الجنس الآخر، ويردن أن يعطين انطباعا جيدا بكلمات منمقة وابتسامات مصطنعة، أما هذه الفتاة فقد كانت مختلفة تماما، فتاة لا ترتدي أي قناع، تعطيك شخصيتها، لا تخاف من عيوبها، فتاة من نوع:

«أنـا هكـذا، إن أحببتنـي فسـأكون سـعيدة، وإن لم تحبنـي فسـأكون سـعيدة أيضـا!»

خـرج سـيف مـن المحـل، وقـد حصـل عـلى رقمهـا، قـال وهـو يقـوم بتسـجيله في هاتفـه:

ـ «ما هو اسمك؟»

ـ «اسمي ماروشكا!»

ـ «ماروشكا! ما هذا الاسم الغريب!»

ـ «أمـي روسـية، وأبي جزائـري، وماروشـكا هـي مريـم العـذراء باللغـة الروسـية».

ـ «إذا فاسمك مريم؟»

ـ «نادني ماروشكا، كما يناديني كريم».

ـ «كريم؟ من هو كريم؟»

ـ «إنـه حبيبـي! لـو لم تكـن عـلى عجلـة مـن أمـرك لحكيـت لـك عنـه».

أحـس سـيف بذلـك الإحسـاس الـذي يحـس بـه الرجـل حينـما يـدرك أن الفتـاة التـي تعجبـه مرتبطـة بشـخص آخـر، لا أسـتطيع أن أصـف هـذا الإحسـاس بكلمـة واحـدة مثـل كلمـة «الخيبـة» مثـلا، لأن ذلـك الشـعور أسـوء مـن شـعور الخيبـة، إنـه مزيـج مـن خيبـة الأمـل والحـزن والخـوف والإحسـاس بالنقـص والضيـق والاختنـاق وأحاسـيس أخـرى لم تصنفهـا لغـات العـالم ضمـن قواميسـها بـل اكتفـت بضمهـا إلى كلـمات مشـابهة لمـا ذكـرت لكنهـا لا تعـبر كفايـة

عنهـا، والطريقـة الوحيـدة للتعبـير عنهـا هـي بالصمت...أجـل الصمـت الـذي نعـبر بـه عـن أحاسيسـنا التـي لا نسـتطيع البـوح بهـا، الصمـت الـذي جعـل سـيف يبتسـم لماروشـكا ويودعهـا بكلـمات قصـيرة وينسـحب كأنـه لم يكـن!

ذهـب بعدهـا إلى مسـتودع بيـع الكحـول دون رخصـة، والتـي تمـلأ الولايـات الثمانيـة والأربعـين التـي تشـكل دولـة الجزائـر، هاتـه الدولـة التـي ترخـص لبيـع الخمـر، لكـن الجميـع يبيعـه دون رخصـة وسـط ملاحقـة الشرطـة التـي مـا إن تتمكـن مـن إغـلاق مسـتودع، حتـى يفتـح مالكـه مسـتودعين في مـكان آخـر!

اشـترى سـيف نصـف لتر مـن الويسـكي مـن نـوع «Red Label»، وذهـب إلى غابـة «بوشـاوي»، مـلأ نصـف الـكأس بالويسـكي، والنصـف الآخـر بمـشروب «كوكاكـولا»، أضـاف ملعقـة صغـيرة مـن السـكر وقطعـة صغـيرة مـن الليمـون، نظـر إلى الـكأس قائـلا: «حينـما كنـت صغـيرا كنـت أسـأل كثـيرا عـن الكوكتيـل الـذي يطلبـه الممثلـون في البـارات في الأفـلام التـي أشـاهدها عـلى قنـاة Mbc2، وهـا أنـا اليـوم أصنعـه في غابـة بوشـاوي الجميلـة!»

وضـع الـكأس في فمـه، وأخـذ يـشرب كوكتيـل الويسـكي اللذيـذ، ذلـك المـشروب الفاخـر الـذي يجعلـك سـعيدا في لحظـات، تحـس دماغـك ثقيـلا وجسـمك أثقـل، تـرى كل شيء جميـلا، يجعلـك تتحـدث بلباقـة وتفكـر بـذكاء، يدعـك تبتسـم للحيـاة وتراهـا جميلـة، يضخّـم أحاسيسـك الإيجابيـة فتنتبـه فجـأة إلى جـمال الأشـجار الخـضراء وشـموخها، وسـامة الشـباب وجـمال النسـاء، روعـة النسـيم

وهـو يداعـب وجهـك وخصـلات شـعرك، يجعلـك تنـسى أن أول فتـاة وقعـت في حبهـا مـن النظـرة الأولى هـي ملـك لشـخص آخـر لعـين!

ماهـي إلا بضعـة كـؤوس، وروح سـيف قـد صـارت صافيـة صفـاء عقلـه، «فهمـت الآن لمـا يدعونهـا المشروبـات الروحيـة» قـال سـيف: «إنهـا تجعلـك حيـا، تجعلـك تحـس بروحـك، وتفـرق بينهـا وبـين جسـدك!»

صـار ذهنـه واضحـا وقـراره جليـا: «كيـف لم أفكـر في ذلـك مـن قبـل؟ سـأقبل أن أكـون صديقهـا وسـأجعلها تحبنـي، أنـا متأكـد أنهـا سـتحبني، فأنـا مختلـف مثلهـا، هـل كريـم مختلـف أيضـا؟ لا أظـن ذلـك! هـي معـه لأنهـا لم تعرفنـي مـن قبـل، حـين تعرفنـي جيـدا سـتحبني! أنـا شـخص رائـع! الظـروف فقـط هـي مـن جعلتنـي أقـوم بأمـور سـيئة، إذا أحبتني ماروشـكا فسـأتوقف عـن تعاطـي الكحـول والمخـدرات، سـأصبح شـخصا جيـدا، وسـأكون أفضـل مـن كريـم!»

رجـع سـيف إلى منزلـه، فتحـت قـدس البـاب فدخـل مترنحـا، صرخـت فيـه قائلـة: «أخـرج مـن بيتـي حـالا وإلا اتصلـت فـورا بالشرطـة!»

ـ «مـا بـك يـا أمـي؟ لمـا تصرخـين؟ قـولي يـا أمـي؟ أتدريـن لمـا أناديـك أمـي؟ لأننـي أشـتاق إلى هـذه الكلمـة، أشـتاق أن تكـون لي أم، أتدريـن لمـا أحـب الويسـكي يـا أمـاه؟ لأنـه يجعلنـي صريحـا، شـجاعا، أقـول كل مـا يختلـج في صـدري، وأنـا أود الآن أن أفضفـض لـك دونمـا خجـل أو خـوف، أنـا أكرهـك يـا قـدس، أيتهـا المـرأة القاسـية، أنـت سـبب مـا أنـا عليـه الآن،

أنا أتعاطى الكحول لأنسى يوم كنت تضربينني ضربا قاسيا، يوم كنت تتركينني والدم يسيل مني، أنت وحش يا قدس، وحش صنعته الحياة القاسية، أنا أعلم أن أمك قد كانت قاسية معك، لكن، هل هذه ذريعة كافية لكي تقسي علي؟ هل هذا يعني أنه يتوجب علي أن أقسو على ابني أيضا؟ لماذا كنت قاسية معي يا قدس؟ لما حرمتني من أمي؟ أنا أتألم وعلى أحدهم أن يدفع الثمن! أجل لن أبيت الليلة في بيتك، لا داع لكي تتصلي بالشرطة، لكن أحدهم سيدفع الثمن الليلة بالذات، ستسمعين بذلك غدا!»

خرج سيف من المنزل مغلقا بابه بقوة، بينما سقطت قدس على فراشها تبكي بقهر، لقد أدركت خطأها الذي اقترفته، وهو خطأ كل الجزائريين الذين يقومون باستخدام العنف مع أولادهم ثم يحتارون لما صاروا منحرفين، ويلقون اللوم على المجتمع، لكن قدس كانت تعلم أن خطأها هذا لم تقترفه بإرادتها، كانت تدرك جيدا أنها تعاني من خطب ما، لقد كانت في الحقيقة تعاني من «متلازمة مونخهاوزن بالوكالة» وهي عبارة عن خلل نفسي خطير، إذا أصاب شخصا ما جعله يتسبب في إحداث أذى جسدي لشخص ضعيف آخر رهن عنايته وذلك لجذب الانتباه أو من أجل غايات أخرى!

اتجه سيف إلى حي «باب الواد» ثم إلى إحدى العمارات وأخذ يصرخ: «أخرج يا أمين! أخرج وقابلني يا أيها الوغد! لقد ظلمتني حينما كنت صغيرا لكن لا أحد ذاد عني، لقد كبرت وأتيت لأنتقم! أخرج يا أمين! يا أيها الحقير!»

أطل الجيران من النوافذ، بينما خرج شاب قصير في

الأربعين من عمره يرتدي نظارات طبية، وهو يحدق في هذا الشاب الذي ينادي باسمه وصرخ فيه قائلا:

ـ «من أنت يا أيها الشاب أخفض صوتك وإ.....».

لم يكمل الجملة حتى لكمه سيف بكل ما أوتي من قوة في وجهه، سقط أمين بينما أشبعه سيف لكما وركلا، ثم قام وأحضر حجرا وعاد إليه قائلا:

ـ «ألا تتذكرني يا أيها الوغد؟ ألا تتذكر يوم صدمتني بالسيارة أمام المدرسة وجعلتني أفقد أسناني؟ هل ظننت أنك نجوت بفعلتك لأن لا أحد اهتم بي وانتقم منك؟ أنت مخطئ جدا يا صديقي، لن تنجو مني اليوم، أنظر إلى أسناني أنا لا أمتلك أنيابا، عكسك أنت يا أيها اللعين! نحن لسنا متساويين! وأنا أطالب بالمساواة!»

رفع سيف الحجر في السماء وهوى به على فم أمين، ولم يتوقف حتى تأكد أنه هشم كل أسنانه الأمامية وبالأخص أنيابه، حضر السكان وتمكنوا بعد جهد كبير من إبعاده عنه، رجع سيف إلى منزله وهو يشعر بالألم، بالحزن، بالقهر، وضع رأسه على باب منزله وغط في النوم، كانت أحلامه تدور حول تلك الفتاة التي تعرف عليها في المكتبة، تلك الفتاة التي أحس معها بشعور جديد لا يشبه الشعور الوحيد الذي يحس به اتجاه الجميع: الكره! فهذا الفتى قد تمت تربيته على الكره، الكره ولا شيء آخر سواه!

استيقظ في الصباح الباكر، فلم يجد نفسه في فراشه، «من أنا؟ ماذا أفعل هنا؟ كم الساعة الآن؟» سأل نفسه وهو يحاول تذكر ليلة البارحة، أخذ يسترد ذاكرته رويدا رويدا حتى تذكر ليلة أمس وما حدث فيها كاملا، ثم أتاه وقتها ذلك الزائر الوغد الذي لا نرحب به كلما أتى إلينا، إنه «الضمير»، ذلك الإنسان داخلنا الذي يخبرنا دوما أن ما فعلناه خطأ وليس جيدا، ويجعلنا نحس بالندم على ما كنا نظن أنه شيء رائع، وأننا أسوء مخلوق في هذا العالم الفظيع!

دخل إلى المنزل، قام بالاستحمام ولبس ثيابا جديدة، كان يهم بالخروج حتى رن هاتفه فجأة، نظر إلى المتصل فوجدها ماروشكا!

قفز قلبه فرحا، أحس بالخوف والتردد، بالدماء تضخ في عروقه، أحس بالحياة! ضغط على زر الاتصال: «صباح الخير أيتها الدميمة!»

ـ «صباح النور يا أيها الأعمى! عليك أن ترتدي نظارات لترى مدى جمالي الأخاذ!»

ـ «يا لتواضعك! أنا أرى جيدا وكل ما رأيته فتاة عادية!»

ـ «أنا جميلة الجميلات يا سيف! يا أيها الغيور!»

ـ «حسنا يا جميلة الجميلات، كيف تذكرت اليوم أن هنالك شخصا يدعى سيف لا زال حيا يرزق؟»

ـ «في الحقيقة اتصلت لأدعوك إلى الغداء، لقد أعدت أمي

معكرونة شهية أريدك أن تشاركني إياها».

ـ «أعدت أمك؟ نساء في عمرك يقمن بتربية أحفادهن وأنت تقولين أعدت أمي! أه؟ قولي يا مجعدة الشعر؟ وهل تقومين بدعوتي من أجل المعكرونة؟ أين هي أطباق السيدة رزقي؟ أين هي أنا لا أراها؟!»

ـ «لازلت صغيرة يا سيف! أنا زهرة أمي الجميلة! هي تطبخ لي وأنا لا أقوم بشيء سوى مشاهدة الأفلام التركية! أمي أعدت المعكرونة، إذا سنأكل المعكرونة!»

ـ «حسنا سأكون في الموعد، لا داعي لأن تضعي ذيل سحلية أو رأس ضفدع في طبقي، فأنا محصن ضد تعويذات شعشوع!»

ـ «انتبه جيدا يا سيد سيف! لأنني لن أرحمك!»

أغلق سيف الخط وهو متأكد أنه يستطيع الطيران لو أراد ذلك! هذه هي الفتاة التي طالما أرادها، هذه هي فتاة أحلامه، لقد كانت حياته قاسية جدا، لكن ذلك كان في الماضي، سيكون المستقبل سعيدا، سيكون مذهلا مع فتاة مثل ماروشكا!

ذهب سيف إلى «بابا حسن»، وصعد سلالم العمارة ودق الباب دقة رجل مهذب، ثوان حتى فتحت ماروشكا الباب: «تفضل أدخل! لقد تأخرت! أمي! لقد أتى صديقي سيف!»

دخل سيف إلى ردهة البيت أين سلم على أمها ثم اتجهوا

جميعا إلى غرفة الطعام، جلس سيف وماروشكا على المائدة بينما كانت أمها تقوم بتجهيزها، سأل سيف مستغربا:

ـ «ألن تقومي بمساعدة أمك؟»

ـ «انهض أنت وساعدها!»

ـ «أنت ربة بيت فاشلة!»

ـ «من ناداني لتوه؟!»

ضحك سيف وهو يرى هذه الفتاة المدللة التي تعلم جيدا أنها مدللة، أراد أن يكسر بعضا من ذلك الدلال فقال: «أعطني السكين من فضلك».

ـ «إنه هناك!»

ـ «أنا لم أسألك عن مكانه، لقد سألتك أن تعطيني إياه».

ـ «هنالك حقيقتان تجهلهما يا سيد سيف: الأولى أنك تمتلك يدين، والثانية أنني لست خادمتك!»

ـ «مجعدة شعر لعينة لا تجيد حتى سلق بيضة!»

ـ «بل جميلة الجميلات التي تجيد الغناء والرقص وطهي الطعام!»

أكمل الشابان غداءهما ثم خرجا إلى الجزائر العاصمة، أين قضيا أغلب وقتهما في معاكسة بعضهما البعض، كانت ماروشكا تغني له، وهو يضربها كي تتوقف عن ذلك لأن صوتها مزعج، لكنها بدل أن تسكت تزيد في صوتها وتغني له أغنية

فرنسية ثقبت طبلة أذنه: «3 كيلومترات على رجليك، تؤلم، تؤلم!»

رجع سيف إلى منزله وهو يتذكر المواقف التي عاشها مع هذه المشاغبة، كان يضحك بشدة، وما أجمل أن نلتقي بأرواح مشاغبة تسعد أرواحنا الكئيبة!

مرت الأيام وسيف وماروشكا لا يفترقان، عاشا ذكريات في بضعة أشهر أكثر مما يعيشها أزواج بعد سنوات من الزواج، كان سيف يحس بالسعادة معها، ويحس بالحزن حينما يختلي بنفسه، فقد كان يعلم جيدا أنه يقع في حبها يوما بعد يوم لكن العكس لا يحدث، كان يعلم أن ما يفعله شيء خاطئ، وهو أن يحب فتاة ملك لشخص آخر غيره!

مرت أيام كانت تخرج فيها مع حبيبها كريم، وكان سيف ينتقم لنفسه بأن يخرج مع فتيات أخريات، لقد عرف بعد برهة من الزمن أن قلبه لن يحب فتاة سواها، فقلبه قد اختار ماروشكا!

كان يفكر فيها كثيرا، أما هو فلم يتذكره سوى ساعي البريد، ذلك الكهل الذي دق بابه وسأله بعبوس: «السيد سيف؟»

ـ «نعم أنا هو».

ـ «رسالة لك».

رماها في وجهه ورجع بنفس العبوس، فتحها سيف ليجد رسالة من بلد المكسيك، فتحها بسرعة وقرأ فيها ما يلي:

« إلى السيد سيف،

يشرفنا أن نعلم حضرتكم أنه وبعد الاطلاع على وثائقكم ومؤهلاتكم، تم قبولكم للعمل معنا في مجال «الحماية والدفاع» عن الولايات المتحدة المكسيكية، وعليكم أن تشرفونا بحضوركم في أجل أقصاه أسبوع من استلامكم لهذه الرسالة».

كان سيف يقرأ الرسالة والحيرة تملؤه، فلو أنه استقبل هذه الرسالة قبل أشهر لكان في قمة السعادة، ولهرع بسرعة لتحقيق حلمه، لكنها أتت الآن بعد أن تعرف على ماروشكا، تلك الفتاة الجميلة البسيطة العفوية التي لن يستطيع التخلي عنها، وكيف له أن يفعل ذلك وقد صار يتنفسها الآن؟ المشكل أنه لا يستطيع التخلي كذلك عن حلمه، وهو العمل في المكسيك والعيش مع مكسيكيين، كان في حيرة من أمره ولم يجد بدا إلاّ الاتصال بحبيبته سرا وصديقته جهرا.

ـ «ألو، أين أنت يا ماروشكا؟»

ـ «أنا في باب الزوار مع كريم، نحن نتناول الآيس كريم، هل تريد مشاركتنا؟»

ـ «كلا أنا متعب، أريد أن أنام، استمتعي بوقتك».

ـ «إلى اللقاء!»

كان هذا الاتصال بمثابة الإجابة عن سؤاله، لقد قال له هذا الاتصال ما يلي: «هذه الفتاة تعيش من أجل الحياة التي

خططتْ لها، فاذهب وعش من أجل الحياة التي خططتَ لها، هي ليست لك، هي خلقت للحب، أما أنت فقد خلقت للحرب! اذهب فورا يا أيها الوغد!»

قام سيف بتجهيز حقيبته وجواز سفره، وودّع أمه على مضض، قالت له: «أرجو الله أن تعود إلينا سالما»، ابتسم سيف قائلا: «إن شاء الله!»

ذهب إلى «الدار البيضاء»، ثم إلى «مطار هواري بومدين الدولي»، أتم إجراءات السفر وركب في الطائرة التي ستقطع به المحيط الهادي، الطائرة التي ستبعده عن همومه وآلامه وماضيه التعيس، الطائرة التي ستأخذه إلى الولايات المتحدة المكسيكية!

وصل سيف إلى مطار «نيومكسيكو»، نزل من الطائرة ليجد سيارة سوداء في انتظاره، تقدم رجل طويل القامة أصلع الرأس يرتدي بذلة سوداء كلاسيكية ونظارات سوداء وقال له وهو يفتح باب السيارة: «تفضل معنا سيدي!»

ركب سيف السيارة والخوف يتملكه، «أين سيأخذونني؟» قال في نفسه، تخيل ذلك السيناريو المعروف في بلاد مثل المكسيك، أين يتم اقتيادك إلى غرفة العمليات وتخديرك ثم نزع أعضائك عضوا عضوا وبيعها في الولايات المتحدة الأمريكية بأثمان باهظة، ثم رمي ما بقي من جثتك في البحر لتلتهمه القروش والأسماك النهمة!

لكنه تذكر أن المؤسسة التي انضم إليها مؤسسة حكومية، وهذا ما جعله يحس بالطمأنينة اتجاه أصحاب البذلات السوداء الذين توقفوا في مدينة «تيخوانا» حيث قال أحدهم: «تفضل سيدي من هنا!»، لم ير سيف شيئا في الطريق لأن زجاج السيارة كان معتما، وما أن نزل حتى رأى المكسيك العميقة، بارات وحانات في كل حدب وصوب، بائعات الهوى يملأن الرصيف، رجال عصابات بوشوم في الوجه، وصراخ وفوضى في كل مكان!

سأل سيف وهو في طريقه إلى فيلا بيضاء: «أين أنا؟»، أجابه صاحب البذلة: «أنت في تيخوانا يا سيدي، مدينة الفساد!»

دخل الجميع إلى الفيلا، أين جلس سيف في غرفة استقبال فاخرة، وذهب رجل لمناداة «الزعيم» بينما بقي الآخر يحرسه، دقائق مرت حتى أتى رجل كهل بشعر يغزوه الشيب ووجه مستدير، كان قصيرا وبدينا لكنه يبدو فاحش الثراء، جلس على الكرسي المقابل لسيف ووضع علبة سجائر على الطاولة المستديرة، أخرج منها سيجارة، أشعلها، أخذ نفسا عميقا ثم قال وهو يخرج سحابة دخانية من فمه: «إذا فأنت هو سيف؟»

ـ «أجل سيدي، بشحمه ولحمه».

ـ «لا بد أنك شجاع لتختار مهنة كهذه».

ـ «لا أظن أنني شجاع يا سيدي لكنني أدرك أنني لست جبانا».

ـ «ومتواضع أيضا! هل تجيد استعمال الأسلحة؟»

ـ «لا أجيد ذلك يا سيدي، لكنني سأتعلم بسرعة».

ـ «حسنا سيحرص رودولفو على تلقينك فن العزف على الأسلحة النارية، لكنني أريدك أن تفهم طبيعة عملك هنا معنا، دعني أسألك أولا: هل أنت مستعد للقتل؟»

ـ «أجل! إن اقتضى الأمر ذلك يا سيدي!»

ـ «عليك أن تدرك إذا أننا استدعيناك لتعمل معنا في مجال تأمين الحماية للمواطنين هنا، أنت تعلم أن الوضع هنا غير آمن، فالعصابات تسيطر على أغلب المناطق، ناهيك عن تجارة المخدرات والأسلحة وغيرها، سنعطيك رجالا يأتمرون بأمرك وينتهون بنهيك، وما عليك سوى تأمين الأماكن التي نرسلك إليها وكذا المنشآت الصناعية والأراضي الزراعية، كي نمنع المجرمين من ضرب اقتصاد المكسيك، ستكون بدايتك صعبة هنا في تيخوانا، لكنك ستعتاد على الأمر فيما بعد، هل من أسئلة؟»

ـ «متى سأبدأ التدريب يا سيدي؟»

ـ «اليوم إن أردت!»

وجد سيف نفسه مساء ذلك اليوم في حقل الرمي، فقد تم إدخاله في برنامج مكثف للتدريب أكثر ما ميزه الرياضة والرمي بمختلف الأسلحة، شهور مرت حتى صار سيف مقاتلا محترفا يجيد القتال المتلاحم والرمي الكوكسولي، ووجد نفسه قائدا لمجموعة كبيرة من المقاتلين المحنكين الذين يمارسون أخطر مهنة في العالم، ألا وهي: القتل والتعرض للقتل!

أمـضى سـيف في المكسـيك سـنوات عديـدة عـاش فيهـا مغامـرات مـع ماروشـكا والمكسـيكيين وأحداثـا أخـرى لا تتسـع لهـا هـذه الروايـة، وقـد جمعتهـا كلهـا في روايـة أخـرى أكـثر بؤسـا مـن هـذه الأخـيرة!

بالنسـبة لقـدس فقـد عاشـت بقيـة سـنواتها وحيـدة والنـدم يعتصرهـا، فقـد هجرهـا زوجهـا وابنهـا ولا عائلـة لهـا تؤنسـها، حاولـت كثـيرا أن ترسـل رسـائل لسـيف لكنهـا لم تعـرف عنوانـه، انتظـرت كثـيرا لعلـه يتصـل بهـا لكنـه لم يفعـل، وجدتهـا جارتهـا ميتـة في إحـدى الأيـام، فكانـت الوحيـدة التـي بكـت عليهـا ونعتهـا، تـم دفنهـا في مقـبرة «سـيدي يحـي» بعـد أن تـم تحديـد سـبب الوفـاة بسـكتة قلبيـة أو بـ «موتـة ربي» كـما يسـميها الجزائريـون.

أمـا بالنسـبة لمونيـكا وكزافيـه فقـد رزقـا بأطفـال وعاشـا حيـاة سـعيدة كانـت ثمـرة الـزواج عـن حـب، والـذي يعتـبر أسـاس كل علاقـة ناجحـة.

أمـا بالنسـبة لبيـدرو فبعـد أن أذتـه قـدس، رجـع إلى برشـلونة، وأمـضى أشـهرا يعـاني مـن الاكتئـاب، ثـم تـزوج مـن امـرأة وأنجـب معهـا أولادا، أو لنقـل أن جسـمه مـن تزوجهـا، لأن روحـه بقيـت عاشـقة لقـدس، وأمـضى بقيـة حياتـه يحـس بالنـدم اتجـاه زوجتـه لأنـه يخونهـا كل يـوم بأفـكاره، يخونهـا كل ليلـة وجسـده نائـم بجانبهـا وروحـه نائمـة بجانـب قـدس.

أمـا بالنسـبة لسـليم فقـد اختفـى عـن المدينـة ولم يسـمع عنـه أحدهـم أي خـبر، وقـضى والـداه سـنوات وهـما يبحثـان عـن ولدهـما

إلى أن فقدا الأمل، فبكيا بكاء شديدا وندم أبوه أيما ندم لأنه طرده من منزله وتمنى لو أنه يرجع إليه يوما واحدا ليحتضنه ويطلب المغفرة منه، وما نفع الندم بعد فوات الأوان؟

وهذه هي الحياة تهبنا لحظات سعيدة ثم تحرمنا منها، تجعل كل شيء على ما يرام ثم فجأة يختلط كل شيء دون أي سبب منطقي! ذلك ما يزيد آلامنا ويدمي جراحنا!

من نلوم؟ هل نلوم سيف لأنه عاق لأمه؟ أم نلوم أمه لأنها لم تهبه العطف والحنان الذي يحتاجه كل واحد فينا حتى ينشأ بنفسية سليمة؟ أم نلوم مايا لأنها رمت قدس في ميتم ولم تعتن بها فنشأت فيها متلازمة مونخهاوزن بالوكالة والتي جعلتها تؤذي ابنها دون قصد منها؟ أم نلوم الظروف الاجتماعية والحياة الحقيرة التي ترغمنا على فعل أمور حقيرة اتجاه أنفسنا واتجاه من نحب؟

بالنسبة لي، أنا ألوم المجتمع الذي لا يرحم، والدولة التي لا تهتم بالأمراض النفسية ولا تعتني بالمرضى النفسانيين، آباء وأمهات ومعلمون وموظفون في الدولة يعانون من أمراض نفسية خطيرة، نتركهم يربون أجيالا من الأطفال يمارسون عليهم العنف بكل أشكاله، فينشأ جيل من المرضى النفسانيين الذين يقومون بالفعل نفسه لأبنائهم، وما هي النتيجة؟ أجيال من المرضى النفسيين الذين يهدمون بدل أن يبنوا، يفسدون بدل أن يصلحوا، يقتلون بدل أن يحيوا!

# سأهجركِ
## كما هجرك أبي

ديراو داتسيدا

"أنا ضائعة أيتها العذراء، أمي تركتني، الفتيات يقلن أنها تقززت مني منذ ولادتي، وأنا لا أتذكر شيئا سوى أنها كانت تكرهني! هل تكرهينني أنت أيضا؟ أنا متأكدة أنك تفعلين، لأنني لا أنتمي إلى أي دين وإلى أية فئة! فالأخوات لا يرغبن بتركي أعتنق دينهن، إنهن يقلن أنني مسلمة، ما هو الإسلام أيتها العذراء؟ أجيبيني أرجوك! الفتيات أخبرنني أنه علي أن أعتنق المسيحية حين أبلغ سن الرشد، لقد أخبرنني أن ديني الأصلي يدعو إلى القتل والذبح وسفك الدماء! لقد أخبرنني أنني إن اعتنقت الإسلام فعلي أن أرتدي لباسا أسود وأصير أمة عند الرجال أساعدهم على ذبح الأبرياء! هل هذا صحيح يا سيدتي؟ أجيبيني أرجوك! فأنا لا أعلم حقا ماذا أفعل أو ماذا أريد! لكنني لا أريد أن أكون سيئة! هل أخبرك سرا؟ أمي امرأة سيئة جدا، لقد رمتني في الميتم يا سيدتي! كيف لأم أن ترمي ابنتها؟ ما ذنبي أنا؟ لما ولدتني أصلا؟ لما أسجن بلا ذنب؟ أجيبيني ولا تحدقي في هكذا! هل ترين أنني غريبة أيضا؟ هل تحسين أنني مختلفة؟ هل تكرهينني أنت أيضا! حسنا أنا ذاهبة! أنا آسفة!"

### إصدارات أخرى للكاتب:

9 789931 704201